روايات رومانسية عالمية

عبير

آن ميثر

عنيد



مكتبة زهران

آن ميثر

عنيد

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية

عبير

عنيد

**من منا
يعرف ما كتب له القدر ؟**

ميراندا لورد غير القدر مصيرها فجأة، حين علمت بموت شقيقتها وزوجها في حادث طائرة مفجع نجت منه ابنتهما الصغيرة بأعجوبة. تركت ميراندا كل شيء في لندن وسافرت الى المكسيك بحثاً عن ابنة اختها . عائلة كويراس ذات النفوذ الواسع احتضنت الطفلة لوسي، ورفض خوان التخلي عنها مهما كان الثمن . صراع ميراندا مع هذه العائلة الثرية كان رهيباً، واجهت وحدها الطغيان والافتراء والأكاذيب ومحاولة تحطيمها بشتى الوسائل. لكن مقاومتها في اثبات حقها بأخذ لوسي لم تضعف، حتى عندما عرض عليها خوان الزواج وتبني الطفلة لكن رفاييل الأخ الأكبر المعارض والرافض يقف في طريقها . ميراندا تحترق حائرة بين نداء الواجب ونداء قلبها ، فإلى أيهما تستسلم ؟

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت ، ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٢٣٧٨٦٤١٨

آن ميثر

غسق

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

PALE DAWN, DARK SUNSET

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية

١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٣٧٨٦٤١٨

١- الطفلة اليتيمة

كانت خيوط الفجر الفضية بدأت تحل بسرعة محل ظلام الليل الدامس، عندما خرج رافاييل من ذلك المنزل القديم وفتح ذراعيه ليملأ رئتيه بالنسيم العليل، ويمتع نظره بجمال الوادي الأخضر. وفي الداخل، كانت مولودة جديدة تصرخ باستمرار بالرغم من احتجاجات والدها فرانكو ماكيراز. وسمع رافاييل الوالد السعيد يحمد ربه باخلاص وامتنان على نجاة ابنته السابعة وسلامة زوجته.

شعر الشاب المكسيكي فجأة بالتعب الشديد يدبّ في جميع اوصاله. ففي اليوم السابق، قطع مسافة لا تقل عن مئتي كيلومتر على طرقات لم يكن معظمها معبّداً، ليشارك في احتفال اقيم في قرية سوستانسيا. وبمجرد عودته قبل منتصف الليل بقليل، جاءه فرانكو

مذعوراً يطلب منه المساعدة لأن زوجته الحامل تتألم كثيراً وطبيب المنطقة موجود في قرية بعيدة.

ومع ان رافاييل لم يمارس مهنة الطب منذ بضعة أشهر، الا انه نجح في التخفيف من آلام السيدة ماكيراز بمهارة فائقة بحيث تمت الولادة بصورة طبيعية وسهلة للغاية. ولما عاد رافاييل ليأخذ سترته من تلك الغرفة الوحيدة التي تستخدمها عائلة ماكيراز للأكل والنوم والجلوس واللعب، بادره فرانكو قائلا:

«ما يمكنني ان اقوله لك يا سيدي أني ممتن للغاية، لو لم تكن موجوداً وسارعت الى مساعدتنا...».

وترقرقت الدموع في عينيه ثم أضاف بصدق وأمانة:

«أنا مدين لك طوال العمر».

هزّ رافاييل رأسه وأجابه بهدوء واخلاص مماثل:

«لا يا صديقي، أنت لست مديناً لي بشيء! يجب ان نحمد الله العلي القدير على ولادة طفلتك وسلامة زوجتك. أنا لم أكن سوى أداة في يده، عز وجل».

«أوه، طبعاً، طبعاً يا سيدي! ولكن مساعدتك لنا يجب الا تذهب هباء. فهل من شيء على الاطلاق، يمكنني القيام به لأفيك بعض حقك؟».

«اتصل بالطبيب رودريغز بمجرد عودته».

«طبعاً، طبعاً يا سيدي. ومما لا شك فيه.. سيكون سعيداً للغاية لأنك خففت عنه بعض الأعباء».

ودّع رافاييل الوالدين الفقيرين متمنياً لهما وللفتيات السبع دوام الصحة والعافية، ثم خرج الى سيارته وهو يشعر بحاجة ماسة الى الاستحمام وارتداء ثياب نظيفة، وأخذ قسط من النوم والراحة... ولو لمدة ساعتين فقط. ولكنه كان يعلم ان ذلك مستحيل في هذا الوقت بالذات، اذ ان عليه الانضمام الى كاهن القرية لمشاركته في اقامة القداس ثم التوجه الى المزرعة لمقابلة شقيقه خوان. وتساءل

بشيء من المرارة عما اذا كان قراره حكيماً عندما تخلّى مؤقتاً عن متابعة دراسته وأبحاثه في مكسيكو سيتي كي يعود الى غوادالبيا لحضور مأتم عمه، وخاصة لأن الفترة التي كان حددها لنفسه بأسبوع واحد او بعشرة ايام على اكبر تقدير امتدت رغماً عنه لبضعة اشهر، لقد حضر بملء ارادته للمشاركة في جنازة عمه الراحل، الذي أمضى معظم حياته كاهناً ورعاً يخدم أبناء منطقته بمحبة واخلاص. كما انه كان يعلم مدى اشتياق والدته له، وهو ابنها البكر. ولكن الكاهن الجديد بدأ يعتمد على مساعدته كما ان أبناء المنطقة أخذوا يحملون اليه مشاكلهم ويطلبون منه اعانتهم بطريقة أو بأخرى. الا انه لا يرغب في البقاء طوال حياته في هذه القرية الخصبة التي تقع في أعالي الجبال، والتي تعيش فيها عائلته منذ أجيال عديدة.

تأمّل رافاييل تلك المساحة الشاسعة الممتدة أمامه والمكتظة بأشجار الفاكهة وسنابل القمح. ورثها عن والده وأمضى فيها السنوات الثلاثين الأولى من عمره. ولكنه لم يكن يرغب في الاحتفاظ بها، وبدأ شقيقه الأصغر خوان يهتم بها ويرعاها. لم يكن يريدها منذ حداثة سنه، فقد كان ميالا الى تحصيل العلم والانطلاق في مجالات الفكر والثقافة أكثر بكثير من السعي الى تحقيق المكاسب المادية والانزواء في قرية صغيرة بعيدة. اختلف ووالده كثيراً حول هذا الموضوع اذ ان تلك الأرض ملك لعائلة كويراس منذ أكثر من ثلاثمئة سنة، يتوارثها الأبناء عن الآباء. وتذكّر رافاييل قصة جدّه الأكبر البرتو كويراس الذي أحبّ هذه المنطقة الى درجة قرر فيها التخلي عن وطنه الأم اسبانيا وعن نفوذه الواسع فيه، للاقامة نهائياً في هذه الأرض الخصبة المنعزلة تقريباً عن بقية انحاء المكسيك.

وتذكّر أيضا كيف ان ذلك الجد الثري بنى بيتاً وغرس العديد من الأشجار قبل أن يرسل يطلب زوجته وأولاده، وكيف ان تلك الممتلكات أخذت تكبر وتنمو بحيث أصبحت حالياً احدى أضخم وأغنى المزارع في المنطقة. وكان الابن الأكبر يرثها عن والده ويورثها

لابنه البكر أكبر وأنجح مما كانت عليه لدى استلامه اياها.

الا ان رافاييل تمرّد وثار على التقاليد. ولأن والده علّمه منذ صغره ان يأخذ ما يريد على انه حق مكتسب له، فقد ظل يحذو حذو أبيه ويسير على خطاه لحين شعر بالازدراء من تلك الأنانية والعقلية الاستبدادية. كانت بداية الاشمئزاز عندما اكتشف أن لوالده عشيقات من بين الخادمات والعاملات في الحقول. ولكن الوالد الماجن اقنعه بأن ليس في الأمر أي خطأ او عيب، مما جعله في وقت لاحق قادراً على كسب مودة أي امرأة يعجب بها أو يريدها لنفسه. وساعدته في تحقيق تلك الانتصارات وسامته وشخصيته القوية، بالاضافة الى الأموال الطائلة الموضوعة بتصرفه.

وعندما انتقل الى الجامعة وابتعد عن والده ونفوذه السيء بدأت نظرته الطبية تقوى على الأفكار الشريرة والطباع البغيضة التي زرعها والده في رأسه، وبدأ يحوّل اهتمامه أكثر فأكثر الى العلوم والثقافة. وأخذ رافاييل يشعر بالانزعاج والأسى الشديدين عندما اصبح يحس اثناء اجازاته السنوية بمدى فقر العمال والفلاحين وظروف معيشتهم الصعبة والسيئة وتفشّي الأمراض بين أفراد عائلاتهم. واقتنع الشاب المثقف بأن ما من شيء على الاطلاق يربطه بهذه الأراضي الغنية والشاسعة التي ستصبح ملكاً له. ولكنه كان يعلم علم اليقين بأن قراره التخلي عن مسؤولياته بالنسبة لادارة هذه الممتلكات سيثير غضب والده وحنقه. ولكن الوالد مات بنوبة قلبية قبيل رافاييل يتخرج من كلية الطب. وبما ان شقيقه الأصغر خوان لم يبد ابداً أي اهتمام في تحصيل العلم وكان موجوداً في المزرعة عند وفاة ابيه، فمن الطبيعي والبديهي ان يتولى هو ادارة اعمال المزرعة لحين حضور الوريث الشرعي.

ارتاح رافاييل كثيراً في ممارسة عمله كطبيب يخصص معظم وقته لمعالجة المرضى الفقراء ومساعدتهم ومواساتهم. ولكن والدته أخذت تلاحقه بعناد واصرار مطالبة اياه بايجاد شريكة لحياته تنجب له أبناء

يحفظون اسم العائلة وتقاليدها ويرث كبيرهم مستقبلا هذه الأراضي والممتلكات. ولم يكن الطبيب الشاب راغباً في الزواج او انجاب الأطفال. ففترة العبث والمجون التي أمضاها منذ سنوات المراهقة الأولى حتى بداية العشرينات من عمره خلّفت ردّ فعل قوياً في الأعوام اللاحقة. لم يعد يشتهي الفتيات الجميلات اللواتي كن يتهافتن عليه، وشعر بأن ما من امرأة ستجتذبه او تثير اعجابه بعد الآن. وبالاضافة الى ذلك، قرر رافاييل خدمة المجتمع وعدم الالتهاء بزوجة وعائلة، وبالرغم من دموع أمه واصرارها.

انتهى قداس الصباح حوالى الساعة السابعة، فتوجه رافاييل الى المزرعة لمقابلة شقيقه. دخل القاعة الفسيحة وراح يتأمل حوله باعجاب وارتياح جمال ذلك المبنى القديم الذي لم يبق من بنيانه الأصلي سوى القاعة وثلاث غرف مجاورة، بالاضافة الى غرفة فسيحة الأرجاء في الطابق الأعلى. وكان كل من الورثة الذين تعاقبوا على امتلاك المبنى يعمل على تدعيمه واضافة غرف وقاعات حسبما تدعو الحاجة او تشتهيه النفس، الى ان اصبح الآن قصراً كبيراً يغطي مساحة شاسعة.

«سيد رافاييل!».

كان صوت مدبرة المنزل جيزابيل حنوناً وقوياً، ويعبّر عن محبة واخلاص حقيقيين لرافاييل. فهو لا يزال بالنسبة لها سيد القصر المطاع.

«صباح الخير، يا جيزابيل».

قالها رافاييل بحنان مماثل وهو ينظر الى السيدة الهندية المسنّة التي تخدم عائلته منذ اكثر من ثلاثين سنة باخلاص لا يضاهى، والتي تدير شؤون المنزل بحزم وقوة.

«علمت ان خوان يريد مقابلتي. فهل تعرفين أين هو الآن؟».

تركت جيزابيل يد رافاييل التي كانت تمسك بها بيديها القويتين وقالت له بلهفة واضحة:

«انك لا تعتني بنفسك على الاطلاق أثناء وجودك في ذلك الكوخ الصغير الذي تقيم فيه».

احتجّ رافاييل بهدوء قائلا:

«انه ليس كوخاً، يا جيزابيل. ثم... أين اخي الآن؟».

«انه يتناول فطوره على الشرفة، يا سيدي. هل أكلت شيئاً هذا الصباح؟».

هزّ رافاييل رأسه وأجابها بابتسامة لطيفة:

«لا، لم تتح لي الفرصة بعد».

نظرت اليه بقلق واضح وقالت معترضة على تصرفاته:

«ألا تلاحظ أنني على حق لا تأكل، لا ترتاح بما فيه الكفاية، لا...».

«كنت منشغلا جداً الليلة الماضية...».

«أوه، صحيح! تذكرت الآن. انها تلك السيدة ماكيراز، أليس كذلك؟ جاء زوجها في وقت متأخر جداً يسأل عنك. هل تمت الولادة بصورة طبيعية؟».

هزّ رافاييل رأسه المتعب وأبلغها بأن السيدة وضعت طفلة جميلة. ثم أضاف قائلا:

«والآن... يجب ان اقابل خوان».

«سأحضر لك فطوراً خفيفاً مع القهوة، يا سيدي».

خرج رافاييل الى الشرفة فاستقبله شقيقه بابتسامة خفيفة قائلا له وهو يمضغ لقمة كبيرة:

«أسعدت صباحاً يا رافاييل. أرى انك استلمت رسالتي».

«وهل كنت تشك في ذلك؟».

ثم جلس في كرسي مجاور وأضاف بهدوء:

«أرجو ان تكون مختصراً، فلدي كثير من المهام هذا اليوم».

صبّ خوان لنفسه فنجاناً آخر من القهوا ثم قدّم الابريق الى اخيه. هزّ رافاييل رأسه وقال:

«ستحضر لي جيزابيل بعض القهوة. انها تصر على انني لا اعتني كثيراً بنفسي».

«صحيح، هذا أمر لا يمكنني ان افهمه... أوه، الأفضل ألا أتابع هذا الحديث فقد تجادلنا فيه سابقاً بما فيه الكفاية! هيا، اشرب بعض العصير. ألا تعتقد أن سياسة الحرمان الذاتي التي تنتهجها يجب ألا تشمل الطعام؟».

«أنا آكل ما يكفيني، وهذا هو المهم. والسؤال الرئيسي هو حول سماح الانسان لنفسه بالأكل حتى التخمة في حين أن نصف سكان العالم يموتون جوعاً».

نظر اليه خوان باستهزاء وسأله متأففاً:

«وهل تعتقد انني سأساعد هؤلاء الجياع ان أنا حرمت نفسي من فنجان قهوة او قطعة حلوى؟».

«لا فائدة من هذا النقاش، كما ذكرت أنت بنفسك قبل قليل».

وفي تلك اللحظة، وصلت جيزابيل ومعها الفطور المخصص لرافاييل وبعد أن أعطت تعليمات مشددة للطبيب الشاب بأن عليه تناول طعامه كاملا، عادت الى عملها مفسحة المجال أمام الشقيقين للتحدث بحرية.

«هل لي ان اطلب منك خدمة، يا رافاييل؟».

«تفضل».

«هل تذكر طفلة الارسالية؟».

قطب رافاييل حاجبيه وقال:

«الفتاة البريطانية؟ طبعاً، اتذكرها».

«يبدو ان اسمها قد يكون لوسي كارمايكل».

«قد يكون؟».

«صحيح، فمن المستحيل القول بالتأكيد من تكون بما أنها هي على ما يبدو لم تعد تتذكر شيئاً عن ماضيها. الا انه كانت على متن الطائرة التي تحطمت قبل بضعة أسابيع، عائلة تدعى كارمايكل،

مؤلفة من أبوين وابنة في حوالى الثامنة من العمر».

«وهل تعتقد ان هذه الفتاة هي التي وجدها بنيتوسانتوس؟».

«ربما، ربما!».

«ولكن، هل يعقل ذلك؟ أين تحطمت الطائرة؟».

«في الجبال. . . على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من هنا».

شرب رافاييل جرعة من القهوة اللذيذة وقال لشقيقه مشككاً:

«يبدو ان هذا الاحتمال ضئيل للغاية».

«الا انه لا يزال احتمالا وارداً. ولسوء الحظ، أصرت السلطات المسؤولة على ان تحقق في كافة الاحتمالات».

«لسوء الحظ؟».

«نعم لسوء الحظ، لأن الطفلة تميل اليّ كثيراً».

استوى رافاييل في كرسيه ثم سأل خوان باستغراب:

«وما هي بالتحديد نواياك تجاه الفتاة الصغيرة؟».

تنهد خوان وأجاب شقيقه بتردد:

«لا أدري! لم اتخذ بعد قراراً نهائياً بشأنها، ولكنني افكر جدياً بموضوع التبني. . .».

قاطعه رافاييل قائلا بدهشة واضحة:

«التبني؟ ولكن. . . قد يكون لها اقرباء!».

هبّ خوان واقفاً بعصبية وقال:

«ان لها اقرباء، ولهذا السبب أطلب مساعدتك».

«مساعدتي؟ لكنني لا أرى كيف يمكنني مساعدتك في هذا المجال».

اشعل خوان غليونه وقال لأخيه بشيء من الحدة:

«تمهّل لحظة وسوف أشرح لك كافة التفاصيل. اكتشفت السلطات أن للفتاة قريبة راشدة هي شقيقة امها. وكما هو متوقع، فانها تعيش في بريطانيا».

«وهل تم ابلاغ الخالة باحتمال أن تكون ابنة شقيقتها قد لا تزال

حية؟».

«نعم، نعم، ولهذا السبب بالذات طلبت مساعدتك».

«كيف؟».

«سوف تأتي هذه السيدة قريباً جداً لمقابلة الطفلة، وللتأكد بنفسها مما اذا كانت حقاً لوسي كارمايكل أم لا».

«لكنني لم افهم بعد كيف يمكنني مساعدتك في هذا الصدد».

«انتظر، انتظر!».

ردّد خوان هذه الكلمة بعصبية واضحة، فيما بدا انه يجد صعوبة في شرح المهمة التي يريد من شقيقه القيام بها. اشعل غليونه مرة اخرى ثم جلس قبالة اخيه وقال متلعثماً:

«سوف. . . سوف اوضح لك كل شيء. خالة الطفلة شابة. . . غير متزوجة. انها الآنسة لورد. وهي. . . ستصل غداً. اريد. . . أريدك ان تستقبلها».

«أنا؟ ولماذا أنا؟ والى أين ستصل؟».

«الى مكسيكو سيتي، بالطبع».

«خوان! انك تهذي! كيف يمكنني ان اقابلها في العاصمة وهي لا تعرفني، كما أني لا أكاد أعرف الطفلة! اذا كنت تريد مقابلتها، فعليك الذهاب بنفسك لاستقبالها».

تنهّد خوان بأسى ورفع ذراعيه قائلا بشيء من الحسرة:

«لا يمكنك ان تطلب مني ذلك! ماذا سأقول لها؟ أنت تختلف عني كثيراً. . . تعرف الناس وكيف تتحدث اليهم. شخصيتك قوية و. . . وتتحدث الانكليزية بطلاقة».

«أهذا هو سبب الاستدعاء العاجل؟».

«نعم».

شرب رافاييل الجرعة الأخيرة من قهوته الباردة، ثم نظر الى شقيقه وقال له بلهجة حادة:

«اني لا افهم لماذا لم تحمل السلطات المسؤولة على احضار هذه

الآنسة الى غواداليا؟».

«لأن المسؤول عن الارسالية، الأب استيبان، قرر ان يترك القضية بين يديّ».

«وهل من انجاز تأمل في تحقيقه من جراء ذلك؟».

احمرّ وجه خوان قليلا وقال:

«انجاز؟ انها كلمة توحي بأننا نعمل في الخفاء لتنفيذ مؤامرة ما!».

«لا، لم اقصد ذلك على الاطلاق. فما تنوي القيام به بالنسبة للطفلة أمر مثير للتقدير والاعجاب. ولكني لا اتصور ان فالنتينا سترحّب بفكرة انها ستصبح فجأة أماً لفتاة في الثامنة من عمرها».

«اننا غير متزوجين بعد، يا رافاييل».

«اعلم ذلك يا عزيزي. ولكن الزواج متوقع، لا بل وأنه معد سلفاً».

تأفف خوان وهو ينهض من كرسيه ثم قال بحدّة:

«اللعنة على الشيطان! ماذا يمكنني قوله لعانس في منتصف العمر؟ كيف سيكون بامكاني أن أشرح لها مشاعري تجاه الطفلة؟ واذا كانت حقاً لوسي كارمايكل، فكيف يمكنني اقناع الخالة بأن الفتاة ستسعد معنا هنا أكثر بكثير من وجودها في تلك البلاد الباردة المزعجة؟».

«اعتقد أنك تتحدث بانفعال وبغير موضوعية، فأنت لا تعرف شيئاً عن بريطانيا، كما أن الفتاة قد تكون مسرورة جداً للعودة مع خالتها. فرابط الدم قوي، ومشاهدة خالتها مرة أخرى، قد يعيد اليها ذكرياتها».

تنهّد خوان بحرقة وقال بتأفف:

«أعرف، أعرف. هل تعتقد انني لم أفكر بهذه النقطة بالذات؟ الا تعلم أن هذا هو السبب الأساسي لطلبي مساعدتك؟ أريدك ان تتحدث مع هذه السيدة وأن تشرح لها اني لست رجلا شريراً. أريدك ان تخبرها الحقيقة وهي ان الفتاة نفسها تحبني وأنني بدوري معجب

بها الى درجة كبيرة. وجود الطفلة معي أفضل لها بكثير من وجودها مع خالتها».

«بكلام آخر، تريدني ان اثني على صفاتك وخصائصك الحميدة كي تنظر الآنسة لورد في امكانية التخلي لك عن ابنة شقيقتها!».

«قل لي يا رافاييل! ألا تعتقد معي ان الفتاة ستكون سعيدة جداً هنا، مع كل ما يمكنني تقديمه لها؟ وهل بامكان تلك السيدة. . . الخالة ان تمنحها من الحب والحنان والرعاية اكثر مما يمكنني أنا منحها اياه؟».

«كيف تعرف ذلك؟».

أشعل خوان غليونه وأخذ منه نفساً عميقاً وقال:

«الأمر واضح من الثياب الرثة تقريباً التي كانت ترتديها عندما تمّ العثور عليها، وكذلك من تلهفها الى الكماليات التي وفرتها لها حتى الآن».

«اسمع يا خوان! اذا كنت حقاً تريد مساعدة الطفلة للعيش في بحبوحة، فما عليك الا ان تعرض على خالتها معونة مادية».

حدّق به خوان مذهولا وقال بصوت عال:

«لا! لا يمكنني ان افعل ذلك».

هزّ رافاييل كتفيه وردّ بهدوء:

«مجرد اقتراح بسيط، لا أكثر».

«اني أناشدك بأن تقابل هذه الخالة تفعل ما طلبته منك. ربما. . . ربما تمكّنت من اقناعها بتغيير رأيها و. . .».

قاطعه رافاييل بشيء من العصبية قائلا:

«خوان! ألا تريد أن تعرض مساعدة مادية؟».

«وهل قلت انني قد أفعل ذلك؟».

عقد رافاييل جبينه وقال لأخيه وهو يهب واقفاً من كرسيه:

«حسناً، سأقابل الآنسة لورد. والسبب في ذلك هو خوفي من أنك قد تفكر بطريقة اخرى للاحتفاظ بالطفلة».

«اني متعلق بها جداً ويسعدني كثيراً انها تعاملني كوالدها الذي فقدته قبل أسابيع. انه لأمر مثير للغاية ان يجد انسان مثلي نفسه محور الاهتمام الوحيد في عالم طفلة صغيرة».

غادر رافاييل الشرفة وتوجه الى غرفة والدته في الطابق الأعلى. كانت تقرأ جريدة الصباح عندما دخل ابنها مبتسماً. وضعت الجريدة جانباً ومدّت ذراعيها لاستقباله قائلة، فيما كان يمسك بيديها وينحني ليقبل رأسها:

«اذن ستذهب الى مكسيكو سيتي لمقابلة تلك السيدة!».

«هل سمعت حديثنا؟».

ابتسمت السيدة ايزابيلا وقالت:

«كيف لا، وصوت أخيك يعلو بين الحين والآخر. بالمناسبة، هل تعتقد انه محق في سعيه لتبني هذه الطفلة؟».

«اني اخشى... في أي حال، خوان راشد بما فيه الكفاية ليقرر بنفسه ما يريد».

هزت السيدة الموقرة رأسها وقد علت وجهها مسحة من الحزن، ثم سألت ابنها البكر:

«هل هو حقاً، يا رافاييل؟».

ولما لم يعلق بشيء على تلك الملاحظة، سألته أمه بشيء من القلق:

«واذا ذهبت الى العاصمة فسوف تعود، أليس كذلك؟».

«طبعاً يا أمي، والا فكيف ستجد السيدة البريطانية طريقها الى هنا! ثم انني مضطر للعودة الى مكسيكو سيتي في القريب العاجل».

«ولكنك لم تمض وقتاً طويلاً هنا يا بني! لم نرك الا نادراً...».

«وقتي ضيق جداً يا أمي».

«اعرف. الجميع يطلبون وقتك، ونصائحك، ومعلوماتك الطبية، فيما أنا... أمك الحبيبة... لا أحظى منك الا بدقائق محدودة في الاسبوع!».

اقترب رافاييل مرة أخرى من السرير وجلس قرب والدته الحزينة ثم قال لها وهو يمسك بيديها:

«أعدك بأنني سأحضر لزيارتك كلما سنحت لي الفرصة بذلك».

ومضى الى القول، فيما كانت تحتضن رأسه وتقبله باكية:

«يجب ان اذهب الآن لأستحم، ولابلاغ كاهن القرية بأني متوجه غداً صباحاً بإذن الله الى العاصمة».

«هل ستنتقل بالطائرة المروحية الى بوابلا؟».

«نعم، وأتصور اني سأجد سيارة هناك يمكنني استخدامها».

«توجد سيارتان جديدتان اشتراهما شقيقك قبل فترة وجيزة. ولكن، أرجوك، لا تسرع! معظم الطرقات خطرة جداً».

ودّع رافاييل والدته وغادر القصر متوجهاً الى سيارته. وفي الخارج، شاهد شقيقتيه التوأم كارلا وكونستانسيا البالغتين من العمر ثمانية عشر عاماً تمتطيان جواديهما الأصيلين وتقتربان منه. عانقهما معاً، فيما كانتا تحتجان على مغادرته القصر بتلك السرعة. وقالت له كارلا:

«أعتقد ان خوان طلب منك مقابلة تلك السيدة... خالة الطفلة الصغيرة. أليس كذلك؟».

ولما رد عليها بالايجاب، اعترضت كونستانسيا بالقول:

«دعه يذهب هو بنفسه!».

ووافقتها كارلا قائلة بحدة:

«لماذا يريدك أن تضيّع وقتك الثمين لمقابلة سيدة مسنّة تأتي من بلاد باردة تعيسة؟».

«هذا يكفي، يا كارلا! انكما لا تعرفان شيئاً عن الآنسة لورد، واعتقد انه لا يحق لكما اطلاق هذه الأوصاف على انسانة قد تكون عكس ذلك تماماً».

«هل يمكنني مرافقتك؟».

«لا اظن ان هذه فكرة جيد

«لماذا؟ فعلى الأقل لن تصاب بالملل...».

ولما قاطعتها كونستانسيا طالبة ايضا مرافقة الشقيق الأكبر، قال لهما رافاييل بهدوء:

«لا يوجد لنا جميعاً مكان كاف في الطائرة المروحية. سأراكما غداً بإذن الله. الى اللقاء».

٢ - التحدّي

كان الطقس حاراً وخانقاً بعد ظهر ذلك اليوم. فيما كان المطار الدولي في عاصمة المكسيك يعجّ بمئات المسافرين والقادمين والمستقبلين. ولم يكن رافاييل من الأشخاص الذين يحبون الحشود أو الضجيج، لا بل انه يتفادى ذلك قدر استطاعته. ومما زاد في انزعاجه انه اضطر للاقامة في فندق المطار يوماً بكامله، لأن الطائرة التي تقل السيدة البريطانية تأخرت عن الوصول أربعاً وعشرين ساعة بسبب عطل فني.

وما أن أعلن عن وصول الطائرة المنتظرة، حتى توجه رافاييل الى القاعة المخصصة للمستقبلين. لم ينتبه الى عيون الشابات التي كانت تلاحقه بنظرات الاعجاب والرغبة. لم يكن مهتماً الا بكيفية استقبال

تلك السيدة والعودة الى الأعمال الكثيرة التي كانت تنتظره.

وقف رافاييل في أحد جوانب القاعة وراح يتأمل باهتمام بالغ جميع السيدات المتوسطات الأعمار اللواتي كنّ يدخلن من باحة المطار. ولحسن حظه، كانت كل من تلك السيدات تجد شخصاً او اشخاصاً في استقبالها. وفجأة دخلت سيدة على كرسي متحرك تدفعه شابة ممشوقة القامة تتفحص المستقبلين بهدوء وروية. وشعر رافاييل بالانقباض. هل يمكن أن تكون تلك السيدة المقعدة هي الآنسة لورد، وتلك الشابة ممرضتها او مساعدتها؟ الا انه سرعان ما اكتشف ان تكهنه لم يكن في مكانه، اذ اقترب رجل وامرأة من السيدة المتعبة وراحا يتحدثان اليها بعطف ومحبة كأنهما يواسيانها. اذن، أين هي الآنسة لورد؟ من المؤكد ان عليها توقع حضور شخص لاستقبالها! هل يعقل ان تغادر المطار وتحجز لنفسها غرفة في احد الفنادق بدون الاتصال بمكتب الاستعلامات؟

«عذراً، ايها السيد!».

نظر بسرعة الى صاحبة الصوت الرقيق ليجد قربه تلك الشابة التي كانت ترافق السيدة المقعدة. ارتفعت معنوياته قليلاً، اذ ان تلك السيدة الحزينة قد تكون بالفعل الآنسة لورد.

«نعم».

قالها بشيء من العصبية لأن الشابة الجميلة والجذابة فاجأته وهو شارد الذهن مبعثر الأفكار. وفيما كان يتأمل بسرعة واعجاب قوامها الرشيق وجمالها الأخاذ، قالت له بصوت دافىء ولهجة بريطانية واضحة:

«عذراً! هل أنت السيد كوبراس؟».

توترت اعصابه قليلاً ولكنه أجابها بلطف وتهذيب:

«نعم، أنا رافاييل كوبراس».

«هل قلت رافاييل؟ آسفة، ولكني كنت أتوقع وجود السيد خوان كوبراس!».

ابتسم رافاييل بأدب عندما لاحظ خيبة أملها الواضحة وقال مطمئناً:

«خوان كوبراس هو شقيقي، يا آنسة. هل تتحدثين بالنيابة عن الآنسة لورد؟».

ابتسمت الشابة الجميلة وهي تجيبه قائلة:

«بالنيابة عن... أوه، لا يا سيد. أنا لا أتحدث بالنيابة عن أحد. أنا هي الآنسة لورد، ميراندا لورد!».

أصيب رافاييل بدهشة عارمة وذهول بالغ، وكأن تلك الشابة أعلنت له للتو عزمها على طعنه بخنجر حاد أو اطلاق النار عليه. لم يصدق! لا يمكن أن هذه الصبية الحلوة هي الخالة المتوسطة العمر التي ينتظر وصولها من بريطانيا! هذا مستحيل، كالخالات او العمات في بلاده هنّ عادة متوسطات الأعمار اوحتى مسنات! وسمعها ذاهلا تسأله بمرح ظاهر:

«هل من مشكلة؟ هل كنت تتوقعني بشكل آخر؟».

أزعجه جداً ان تعرف بالتحديد سبب ذهوله وارتباكه، وتضايق من الطريقة التي كانت تنظر بها اليه. لم تعجبه نظراتها الساحرة. تنحنح قليلاً وأجابها بهدوء مصطنع:

«لا، ابداً يا آنسة! كنت أتوقع أن تكوني... اكبر سناً، لا أكثر!».

«التوضيح سهل للغاية، فأختي تكبرني باثني عشر عاماً».

بدا عليها التأثر الواضح بمجرد التحدث عن شقيقتها الراحلة، ولكنها ابتسمت مرة اخرى وقالت له:

«آسفة لأني خيبت آمالك، يا سيد كوبراس».

تطلّع رافاييل حوله متفادياً نظراتها الساحرة وأدرك انه لم يعد بامكانهما البقاء طويلاً في تلك القاعة، لأن طائرة اخرى بدأت تحط على مدرج المطار.

«تفضلي معي، يا آنسة. هل لديك حقائب؟».

«واحدة فقط. انها تلك الحقيبة الزرقاء الموجودة هناك. سأحضرها».

«أنا سأحضرها لك يا آنسة».

ما ان اقترب رافاييل من الحقيبة، حتى لاحظ ان زواياها بالية بعض الشيء، وأنها ليست من النوع الذي تبتاعه آنسة ثرية او حتى مرتاحة ماديا. وتذكّر كلمات شقيقه بالنسبة الى الطفلة اليتيمة. وربما كان محقاً في تصوراته، فهذه الشابة ليست مؤهلة لأن تكون وصياً على فتاة في الثامنة من عمرها. عاد بالحقيبة وقال لصاحبتها بأدب:

«هيا بنا يا آنسة».

«أرجوك ان تناديني باسمي الأول، ميراندا. اني معتادة على ذلك، وأفضله كثيراً على كلمة آنسة».

لم يعلّق رافاييل بشيء على تلك الملاحظة، بل أشار برأسه نحو باب الخروج. وفي طريقهما الى السيارة، قالت له ميراندا:

«أتصور انك تنتظرني منذ يوم امس. اني آسفة جداً، ولكن الطائرة تعرضت لعطل فني طارئ». صدقني، كانت رحلة مرهقة للغاية».

ثم نظرت حولها وقالت بارتياح ظاهر:

«ويا لهذه الأزهار الجميلة الرائعة! اني لا أكاد أصدّق انني هنا... في المكسيك. انها بلاد ساحرة وأنا متشوقة جداً لمشاهدتها، وبخاصة لأنها احدى المرات القليلة التي أسافر فيها الى الخارج».

«كنت اتصور ان هدف حضورك ليس للتمتع بالمناظر الطبيعية، يا آنسة».

أحنت رأسها قليلا ثم نظرت اليه وقالت بهدوء:

«فقدت اختي وزوجها منذ أكثر من أربعة اشهر، واضطررت لاقناع نفسي بتقبّل الحقيقة المرة وهي انهما لن يعودا ابداً».

أدرك رافاييل انه يترك انطباعا سيئا عن نفسه عندما يتصرف على ذلك النحو مع شابة غريبة، ولكنه لم يقل شيئاً.

«سيارتك؟».

قالتها برصانة وهي تحاول اخفاء اعجابها الشديد بتلك السيارة الجديدة والمشهورة بمزايا عدة، بما في ذلك السرعة التي يمكن ايصالها بسهولة الى اكثر من مئتي كيلومتر في الساعة. هز رافاييل رأسه نفياً وهو يقول:

«انها لشقيقي، يا آنسة».

ثم فتح الباب داعياً اياها للجلوس في المقعد الأمامي. وبعد ان وضع الحقيبة في الصندوق، جلس وراء المقود وأطلق العنان لذلك المحرك القوي. انها المرة الاولى منذ زمن بعيد تجلس فيها قربه شابة او سيدة، باستثناء شقيقة او والدة او قريبة. ومع انه قرر تجاهل وجودها قربه، الا انه لم يتمكن من تجاهل رائحة عطرها الجميل وحرارة جسدها الدافئ. ولما انتبه الى انها تنظر خارجاً باهتمام واضح، أرغم نفسه على التصرف بصورة طبيعية وراح يشرح لها بايجاز عن الجبال المحيطة بالمدينة مع القاء بعض الضوء على النواحي التاريخية والثقافية للبلاد ككل. ولاحظ رافاييل انها اصيبت بخيبة أمل عندما توجه جنوباً نحو بوابلا عوضاً عن الذهاب عبر العاصمة. وقال لنفسه ان بامكانها مشاهدة معالم المدينة بمفردها عندما تنتهي من المهمة التي حضرت لتنفيذها. وسمعها تسأله فجأة:

«كم تبعد غواداليا من هنا؟».

«لا تزال أمامنا مسافة طويلة، يا آنسة».

وصمت لحظة ثم مضى الى القول:

«وغاب عن بالي أن أسألك في المطار عما اذا كنت جائعة أم لا. ما رأيك في تناول وجبة خفيفة من الطعام في أحد المطاعم القريبة من هنا؟».

«شكراً على اهتمامك بي، ولكنني تناولت طعام الغداء على الطائرة».

وبعد بضع لحظات، نظرت اليه مجدداً وسألته بجدية:

«كنت اتوقع ملاقاة شقيقك في المطار. هل هو مريض؟».

اشتدّت قبضته على مقود السيارة وهو يجيبها قائلا:

«لا! لا يا آنسة! انه ليس مريضاً».

«الا ان هناك سبباً آخر لعدم مجيئه، أليس كذلك؟».

ولم تنتظر جوابه اذ سألته مرة اخرى باصرار وتحدّ:

«انك لم تكن راغباً في الحضور، أليس هذا صحيحاً؟».

دهش رافاييل من هذا الايحاء وسألها بهدوء مصطنع:

«لماذا تقولين ذلك، يا آنسة؟».

«الأمر واضح للغاية. لديّ شعور بأني اكثر من مجرد ازعاج بسيط لك».

«آسف».

«لا، لست آسفاً على الاطلاق. ولكني اتمنى معرفة السبب الحقيقي الذي دفعك الى المجيء طالما انك تشعر بهذه الطريقة».

تنهد رافاييل وقال لها متأدباً:

«اعذريني يا آنسة! اني... اني متعب قليلاً».

هزت رأسها ثم قالت له:

«اخبرني عن لوسي».

تردد رافاييل لحظة وسألها بهدوء:

«وهل انت متأكدة من أن الطفلة الموجودة في غوادالبا هي حقاً لوسي؟».

«أرسل لي كاهن المنطقة، الأب... استيبان على ما أذكر، صورة فوتوغرافية عنها. انها ليست افضل صورة لها، ولكنها تظهر شكلها وملامحها بصورة لا تقبل الشك. ولا أتصور ان هناك في المكسيك آلاف الفتيات الصغيرات اللواتي تنطبق عليهن مواصفات لوسي».

«أنت على حق».

«وبالمناسبة، علمت ان شقيقك يعاملها معاملة طيبة للغاية».

شعر رافاييل بأن الفرصة سنحت كي يفاتحها برغبة أخيه. ولكنه

تروّى قليلا لأن هذه الشابة تختلف اختلافاً تاماً عما يتصوره خوان. ثم قال:

«شقيقي متعلق كثيراً بالطفلة».

هزّت برأسها كأنها تعرف ذلك مسبقاً، وقالت:

«هذا ما فهمته ايضا من الكاهن. يجب ان أشكر أخاك على اهتمامه البالغ بها. هل لديه أولاد؟».

«انه ليس متزوجاً، يا آنسة».

ابتسمت ميراندا وقالت له بلهجة شعر معها انها تستخف به مرة اخرى:

«اذن، فليس لديه أي اولاد. صحيح؟».

أطبق رافاييل شفتيه بحدة، ثم قال:

«لديه خطيبة، وسيتزوج قريباً».

«أوه! وأنت، يا سيد! هل أنت متزوج؟ هل لديك اطفال؟».

«كلا».

رفعت حاجبيها باستغراب وقالت:

«يبدو من نبرتك ان هذا الموضوع غير وارد على الاطلاق».

ثم ابتسمت ومضت الى القول:

«وأنا ايضا غير متزوجة. الا اني كنت اتصور ان الناس في الدول اللاتينية يتزوجون في سن مبكرة».

«لا يمكنك القول ان الجميع يتزوجون باكراً او حتى انهم يريدون الزواج على الاطلاق».

لاحظت انفعاله فقالت له ببرودة اعصاب مزعجة:

«لديك كل الحق في ذلك. اني ادرك تماماً ان العادات والتقاليد لم تعد ترغم جميع الناس على الزواج».

«لم أكن اعني ذلك ابداً، يا آنسة!».

«حقا؟».

تأملت عنقه وكتفيه العريضين بعض الوقت قبل ان تنظر الى

معصمه وتفحص بدقة ساعته الذهبية الثمينة، ثم حوّلت نظراتها الى يديها. تضايق رافاييل من ذلك. فما من امرأة مكسيكية نظرت اليه بهذه الطريقة من قبل! أين الاحترام واللياقة؟ هل اصبحت الفتاة في بلادها تعتبر نفسها مساوية للرجل، بكل ما لتلك الكلمة من معنى؟ لقد سمع أن هذا هو ما يجري هناك، ولكنه وجد صعوبة فائقة في تصديق ذلك. ووجد نفسه فجأة يتنهد بقوة ويسألها:

«هل لديك، يا آنسة، أي نية للزواج في المستقبل القريب؟».

اتسعت عيناها دهشة واستغراباً وقالت له:

«لا، ليس في المستقبل القريب. ثم... لماذا توجه اليّ مثل هذا السؤال؟».

ارتبك رافاييل لأنه في الأساس لم يكن معتاداً على أحاديث شخصية كهذه. ولكنه استجمع قواه وقال لها:

«لمجرد... لمجرد السؤال، لا اكثر».

لماذا لا يفاتحها بالموضوع ويدخل الى صلبه بدون لف او دوران؟ المسألة صعبة للغاية، ولكن لديه مهمة يجب تحقيقها مع كل ما يتطلب ذلك من جرأة وشجاعة وقرر ان يسألها:

«ماذا ستفعلين يا آنسة فيما... فيما لو كانت الطفلة فعلا ابنة اختك؟».

قطبت ميراندا حاجبيها وسألته باستغراب:

«ماذا سأفعل؟ لا افهم ماذا تعني، يا سيد!».

«اني أصوغ جملي بكلمات مبهمة، فاعذريني. ما اعنيه بالتحديد هو... هل ستحملينها معك الى بريطانيا؟».

«طبعاً! وهل هناك من مكان آخر يمكنني ان آخذها اليه؟ ليس لدينا، أنا واختي الراحلة سوزان، أي شقيقات او اشقاء. كما ان والدينا توفيا قبل حوالى ثماني سنوات. وعندما حظي بوب زوج اختي بوظيفة جيدة في البرازيل وانتقلت العائلة الى هناك، كنت لا أزال طالبة في الجامعة. لم أر أياً منهم منذ أكثر من ستة عشر شهراً».

«اذن، فقد تجدين... صعوبة في رعاية الطفلة!».

استدارت نحوه بسرعة وقالت بشيء من الحدة:

«وهل أنت حقاً مهتم بمصلحتها الى هذه الدرجة؟».

«من الطبيعي والمؤكد ان يكون واجب كل انسان الاهتمام بطفلة مثلها. انها تحتاج الى يد قوية تساعدها وتؤمن لها معيشة كريمة ولائقة! تحتاج الى طعام جيّد وثياب متوافرة! انها بحاجة الى شخص يكون دائماً قريباً، وعلى استعداد لتقديم النصح والمعونة!».

«وهل تعتقد اني غير قادرة على توفير ذلك لها؟ هل هذا ما ترمي اليه، يا سيد؟».

«أنا لم أقل ذلك، يا آنسة. ولكنك شابة في مقتبل العمر، فأين سيكون مكان طفلة صغيرة يتيمة في حياتك؟».

نظرت اليه بعصبية ومرارة قائلة له ببرودة:

«لدي شعور بأنك تريد ابلاغي امراً ما، يا سيد».

تنهد رافاييل وهو يتمنى للمرة المئة لو انه رفض القيام بهذه المهمة الصعبة. ولكنه قرر مفاتحة الشابة الاجنبية بصراحة تامة، فقال لها:

«ان شقيقي، يا آنسة، مهتم لدرجة كبيرة بحياة الطفلة ومستقبلها. وهذا أمر طبيعي للغاية، وبخاصة لأنها كانت خلال الاسابيع الماضية... محور اهتمامه ورعايته».

«ولكنها لا تتذكر من تكون، أليس كذلك؟ كيف تظن انها ستشعر عندما تعلم ان... ان والديها قتلا قبل فترة قصيرة؟».

«من المستحيل الاجابة على ذلك ايضاً».

«طبعاً، ولكن ألا تعتقد انه من الضروري بالنسبة الى فتاة مثل لوسي ان تكون مع انسان تعرفه حق المعرفة ويهتم بها ويرعاها، اكثر من كونها مع انسان آخر؟».

«ربما كان ذلك صحيحاً، يا آنسة».

«ولكنك لست متأكداً، أليس كذلك؟ أظن بأني بدأت أعرف السبب لعدم حضور أخيك لمقابلتي. أرادك ان تتحدث باسمه...

أن تكون محامية، اذا صح التعبير ولكن، لماذا؟ ماذا تعني لوسي بالنسبة اليه؟».

شاهد رافاييل أضواء مطار بوابلا بارتياح، لأنه اصبح بامكانه التحول الى موضوع آخر. تطلع اليها وقال لها بلهجة تنم عن عدم الرغبة في متابعة مناقشة قضية الطفلة:

«ستتابع رحلتنا بطائرة مروحية. وعندما نصل، تلتقين اخي وتتعرفين على حقيقة نواياه ورغباته».

عندما ارتفعت بها الطائرة في الجو، انفرجت اساريره واستعاد الكثير من سكينته وراحة باله. فهو يحب الطيران منذ حداثة سنه، وقد درّبه والده على قيادة الطائرات المروحية وتلك التي تطير بمحرك واحد حتى أصبح يضاهيه قدرة ومهارة وهو لم يزل في الرابعة عشرة من عمره. وبعد فترة من الوقت، انتبه الى أن الفتاة التي تجلس قربه لم تتفوه بكلمة واحدة منذ سماعها جملته الحازمة والقاسية. ما ذنبها كي يعاملها ويتحدث اليها بمثل تلك الخشونة التي ليست من طبيعته او صفاته! ستنتهي مهمته خلال نصف ساعة ولن يعود مسؤولا عنها، فلماذا لا يقول لها الآن ما يخفف عنها قليلا ويريح أعصابها المتوترة؟ اختار كلماته بدقة ثم ابتسم وقال لها:

«لا أحد يا آنسة ينوي ان يأخذ ابنة اختك منك... هذا اذا كانت الطفلة فعلا هي ابنة اختك».

ازاحت وجهها عنه وقالت:

«لا احد يقدر على ذلك».

ازعجه اصرارها وشدّة عزيمتها. من الواضح أنها لا تدرك مدى قوة عائلة كويراس ونفوذها في هذه المنطقة، والا لما كانت تحدثت اليه بمثل هذه اللهجة وهذا التحدي. علّق على جملتها قائلا بهدوء:

«لو كنت مكانك، يا آنسة، لما اتخذت هذا الموقف. أنت لست في بريطانيا الآن».

«هل تهددني، يا سيد؟».

صعد الدم بسرعة الى رأسه، ولكنه حافظ على رباطة جأشه وقال لها:

«لا، يا آنسة! أنا لا اهددك، بل أقدّم اليك نصيحة أتصور ان عليك أخذها بعين الاعتبار».

«وأنت، يا سيد، ماذا تفعل؟ هل تعمل لدى شقيقك في ادارة هذه الممتلكات الغنية التي ذكرها لي الأب استيبان في رسائله المتعددة؟ وهل مقابلتك لي هي احدى المهام التي يطلبها منك اخوك؟».

لم يشعر رافاييل بمثل هذا الغضب العارم منذ فترة طويلة، ولكنه تمكن من اجابتها ولو بحدة قائلا:

«لا! لا يا آنسة، انا لا اعمل لدى شقيقي وليست لدي أي علاقة بهذه الممتلكات والأراضي».

أصابها ردّه بحيرة ودهشة شديدتين، ولكنه فضّل عدم الخوض في أي تفاصيل تتعلق بوضعه الحالي. من المؤكد انها ستعرف ذلك قريباً، ولكن ليس منه هو في أي حال. وسمعها تقول له بدهشة، عندما حطّ بالطائرة في المكان المخصص لها الذي يطل على القصر:

«اوه، ولكن... كنت اعتقد ان لوسي تقيم في مبنى الارسالية مع الأب استيبان!».

«هذا صحيح، يا آنسة. ولكن مبنى الارسالية صغير لا يتسع لأكثر من المقيمين فيه حالياً، ولهذا اصر شقيقي على استضافتك هنا. بالاضافة الى ذلك، فليس من المستحسن ايقاظ الطفلة وارباكها في مثل هذا الوقت المتأخر».

مد يده عارضاً عليها المساعدة للنزول من الطائرة وبعد لحظة من التردد، وضعت يدها النحيلة الباردة في يده القوية الدافئة. كانت تلك المرة الأولى التي يلمسها فيها، ولاحظ من الطريقة التي نظرت بها اليه انها تشعر بوجوده الى درجة كبيرة. سحب يده بسرعة وقد سرّه اقتراب الميكانيكي جيراردو سانشيز منها مهرولا بعض الشيء

وملوحاً بكلتا يديه. وبعد ان تحادثا قليلاً، دخل سانتشيز الطائرة واحضر الحقيبة الزرقاء فيما كان رافاييل يقول لضيفة اخيه:

«هيا بنا، فأفراد العائلة على احر من الجمر. اخبرني جيراردو ان اخي لم يستلم رسالتي بشأن تأخير طائرتك. ومن المؤكد انه وامي اقنعا نفسيهما بأني تعرضت لحادث سيارة او طائرة».

أحست بالذنب والمرارة وكأنها هي مسؤولة عما حدث. ولكنها ارتاحت كثيراً عندما لاحظت ابتسامته، وقالت له بعفوية:

«انك تبدو أفضل بكثير عندما تبتسم».

قطعا المسافة الفاصلة بين مربض الطائرة المروحية وباحة القصر مستخدمين سيارة رافاييل التي كانت بانتظاره. وما ان شاهدته والدته ينزل من السيارة، حتى هرعت نحوه فاتحة ذراعيها وهي تقول:

«رافاييل! أوه، رافاييل! الحمد لله يا ربي، الحمد لك!».

عانقها رافاييل بحنان وتأثر ثم أبعدها عنه بهدوء قائلاً:

«امي، أقدم اليك الآنسة لورد... الآنسة ميراندا لورد».

اتسعت عيناها دهشة وكأنها اصيبت بصدمة، ثم سألته بالانكليزية تأدباً ولياقة:

«الآنسة لورد؟ خالة الطفلة، القادمة من بريطانيا؟».

«صحيح، يا امي. آنسة لورد، اقدم اليك والدتي... السيدة ايزابيلا كويراس».

مدّت ميراندا يدها نحو السيدة المذهولة التي صافحتها بتهذيب، ولكن ببرودة وجفاف واضحين. وبعد لحظة تمكنت ان تقول لها بأدب لا يجوز الاستغناء عنه:

«هل كانت، رحلتك مريحة، يا آنسة؟».

«الى حد ما، مع ان الطائرة تأخرت يوماً كاملاً في جمايكا. اني آسفة لعدم استلامك رسالة ابنك بهذا الخصوص، وللقلق الشديد الذي حصل نتيجة ذلك».

نظرت الأم الى ابنها بسرعة وسألته بلهفة:

«هل هذا صحيح، يا رافاييل؟ هل بعثت لنا برسالة؟».

«طبعاً، وقد أبلغني جيراردو بأنه لم يتم استلامها هنا. في أي حال، ها نحن وصلنا سالمين. والآن اعذراني، فعليّ الذهاب فوراً لأن لدي اعمالاً عاجلة يجب الاهتمام بها بدون ابطاء».

حدّقت به ميراندا غير مصدقة وسألته:

«هل ستذهب في هذا الوقت المتأخر؟».

«اخشى ذلك، يا آنسة. فكما قلت لك، أنا لا أقيم هنا. سوف تتولى والدتي الاهتمام بك، ومن المؤكد ان اخي سيقابلك خلال فترة قصيرة».

«ولكن...».

قفز الى سيارته بسرعة متفادياً نظراتها ورجاء أمه له بالبقاء مودعاً:

«الى اللقاء. سأراكما قريباً، ان شاء الله».

٣- ظهور مفاجيء

لم تنم ميراندا من قبل في سرير بمثل هذه الفخامة والضخامة، لا بل انها لم تكن تعلم بوجود رفاهية كهذه. فقد ولدت ونشأت في بيت عادي بسيط لحين مقتل والديها في حادث سيارة. وبما انها كانت لا تزال طالبة في سن المراهقة، فقد اضطرت للعيش مع شقيقتها سوزان المتزوجة حديثاً.

كانت ميراندا وسوزان مختلفتين تماماً من حيث المزايا والصفات والطباع. وتسببت غيرة سوزان من شعبية اختها الصغرى في المدرسة والمجتمع باحداث قدر كبير من التنافر بينهما. ومع ولادة لوسي، اخذت تخصص معظم وقتها واتباهها لابنتها وتهمل بالتالي نفسها. . . وزوجها، وأدى ذلك مع مضي الوقت الى تحول اهتمام

بوب الى شقيقة الزوجة. لم تشجعه ميراندا على هذا التحول، الا ان طبيعتها المرحة وشخصيتها المحببة جعلتاه يتودد اليها وهي جاهلة تماماً نواياه السيئة. وكان لحسن حظها انها اكتشفت حقيقة أهدافه في الوقت الذي كانت تستعد فيه للانتقال من المدرسة الاعدادية الى الكلية. . . بعيداً عن شقيقتها وصهرها. وعلى رغم تلك الممارسات غير الطبيعية وعلاقتها المتشنجة معهما، فقد أصيبت بصدمة قوية عندما علمت بأنهما فقدا وربما قتلا.

تثاءبت وحرّكت قدميها بتكاسل تحت الغطاء الحريري الثمين، فيما كانت تلك الأفكار والذكريات المزعجة تمنعها من النوم. وابتسمت عندما تذكّرت احدى الخادمات وهي تنادي صاحب البيت دون خوان، أي السيد خوان. لم تتوقع ابداً ان تلتقي شخصياً بـ«دون» خوان حقيقي، مع ان الذي التقته قبل ساعات قليلة لا يشبه من قريب او بعيد العاشق المغامر الفذ الذي تحدّثت عنه الاساطير. وقالت لنفسها ان شقيقه رافاييل يجسد الى درجة كبيرة ذلك البطل الاسطوري.

ضربت ميراندا بعصبية على وسادتها وسألت نفسها بحدة وتململ عن سبب تحوّل افكارها باستمرار الى ذلك الرجل! كان قاسياً وجافاً معها، بل انه حتى لم يستخدم معها أسلوب المجاملة المتعارف عليه! تصرّف معها كأن مجيئها لأخذ ابنة شقيقتها الراحلة جريمة لا تغتفر! ومع ذلك، فالشاب جذاب للغاية وكان اول رجل يعاملها بمثل تلك اللامبالاة. وعلى الرغم من أن خوان تصرف معها بطريقة مختلفة تماماً، فانها لم تشعر تجاهه بجزء مما تحس به بالنسبة الى رافاييل. لا بل انها لا تشعر نحوه بأي شيء على الاطلاق.

بعد ذهاب رافاييل، رافقتها السيدة ايزابيلا الى الداخل. وبدا واضحاً لميراندا ان سيدة القصر، كابنها البكر، لا تحبّذ كثيراً قدوم الزائرة البريطانية الى غواداليا. الا انها كانت بلا شك أكثر تهذيباً وتأدباً معها، كما أثبتت انها مضيفة رائعة. فبمجرد دخولها، قالت

لها:

«انك بالتأكيد متعبة جداً من رحلتك الطويلة المرهقة، وأنا اقترح تأجيل الأحاديث المتعلقة بالطفلة حتى الصباح. سوف أرشدك الى غرفتك المعدة سلفاً وأبعث لك بطعام العشاء».

شكرتها ميراندا بتهذيب مماثل وبدون تردد لأنها فعلا كانت متعبة وبحاجة الى الراحة. وتصورت ان السيدة ايزابيلا، مثل رافاييل، كانت تتوقع وصول سيدة أكبر سناً وأنها تحتاج لبعض الوقت كي تتأقلم مع الواقع الجديد. وفي تلك اللحظة، فتح باب عريض الى يسارها ودخل منه رجل لا بد انه خوان كويراس. لاحظت ميراندا على الفور الشبه بينه وبين أخيه، مع انه أضخم جثة وأقصر قامة. وسمعته يسأل أمه باستغراب:

«ما هذا؟ أين رافاييل؟».

ثم علت وجهه ابتسامة عريضة وعاد يسأل والدته ثانية، ولكن هذه المرة بالانكليزية بدلا من الاسبانية:

«هل رافاييل هنا، يا أمي؟».

«اي وذهب على الفور. تأخرت طائرة الآنسة... الآنسة لورد في جمايكا يوماً كاملا، ولذا لم يتمكن من العودة أمس».

ثم عضت على شفتها السفلى وقالت لميراندا، مشيرة الى الشاب الواقف قربها:

«أعرّفك بابني، يا آنسة. السيد خوان كويراس».

ردّت ميراندا على ابتسامة خوان بالمثل قائلة:

«اني مسرورة بالتعرف اليك، وأود ان أعرب لك عن امتناني لحسن ضيافتك».

تأملها خوان بدقة متناهية ثم هز رأسه وسألها يائساً:

«هل أنت خالة الطفلة؟ لا يمكن، فأنت نفسك لست أكثر من مجرد طفلة كبيرة!».

كانت كلماته مماثلة لتلك التي استخدمها شقيقه، ولكن لهجته

ونيته كانتا مختلفتين الى حد كبير. وسرّها ان تجد شخصاً واحداً على الأقل في هذه العائلة لا يعترض على وجودها في غوادلبيا، مع انه هو الذي لا يريد التخلي عن الطفلة. وبدت الوالدة أقل حماساً لمتابعة الحديث، اذ قالت:

«كنت اقترح لتوي على الآنسة لورد ان تذهب الى غرفتها لأنها متعبة جداً، وبالتالي فان جميع الأحاديث المتعلقة بسبب وجودها هنا يمكن تأجيلها حتى الصباح».

نظر خوان الى ميراندا وسألها بجدية:

«وهل هذه هي رغبتك ايضا، يا آنسة لورد؟».

ارتبكت ميراندا لأن الشاب وأمه وضعاها في موقف لا تحسد عليه. ولكنها حسمت ترددها بالقول:

«اني... اني حقاً متعبة، اذ لم أنم جيداً أثناء الانتظار في جمايكا».

بدا الارتياح على وجه الوالدة التي سارعت الى القول:

«حسناً سترافقك جيزابيل، مديرة المنزل هنا، الى غرفتك للسهر على راحتك وتقديم كل ما تحتاجين اليه».

«أشكرك جداً على اهتمامك ورعايتك، يا سيدتي».

وما ان ذهبت الأم لاعطاء التعليمات الضرورية، حتى بادرها الابن بالسؤال:

«اخبريني، يا آنسة لورد، هل أبلغك شقيقي... عن مدى... مدى اهتمامي بالصغيرة؟ لوسي، أليس كذلك؟».

بدا الارتياح على وجه ميراندا وأجابته قائلة:

«طبعاً، وأنا أشكرك على كل ما قمت به تجاهها. ذكر لي الأب استيبان في أكثر من رسالة انك كنت تزورها باستمرار، وتأتي بها لزيارتكم مرات عديدة».

«اننا... اننا صديقان، أليس كذلك؟».

«أنا متأكدة من أن اهتمامك بها خفف كثيراً من آلامها وهوّن

عليها مصابها. ومما لا شك فيه انها كانت تفرح جداً بوجودها في المنزل التاريخي الرائع».

دخلت السيدة ايزابيللا وهي تقول لامرأة هندية مسنّة كانت ترافقها:

«ارشدي الآنسة لورد الى غرفتها وقدّمي لها أشهى ما لديك من المأكولات».

«على الفور، يا سيدتي. تفضلي، يا آنسة».

شكرت ميراندا السيدة ايزابيللا وابنها وتمنّت لهما ليلة سعيدة، ثم تبعت جيزابيل الى الغرفة فيما أحد الخدم يحمل لها حقيبتها الزرقاء القديمة.

تنهدت وتقلّبت في سريرها متأففة متبرمة، وهي تعلم انها ان لم تنم قريباً فسوف يصعب عليها كثيراً الخروج من الفراش صباح اليوم التالي. ولكن كل شيء مختلف عما هي معتادة عليه، بما في ذلك الهدوء المخيّم بصورة تامة تقريباً بعكس الضجيج الذي اعتادت عليه في شقتها الصغيرة بحي تشلسي. وتذكّرت شدّة اعتراض مديرها على ذهابها الى المكسيك واقتراحه الطلب من السلطات المسؤولة ارسال الطفلة الى بريطانيا للتعرف عليها. انه انسان بارد وقاسي القلب، ومما لا شك فيه انه لم يغفر لها بعد رفضها الزواج منه على الرغم من جميع مزاياه. فهو شاب وسيم وذكي وذو طموح لا يضاهى وكانت جميع الفتيات في المكتب يحسدنها على كونها سكرتيرته الخاصة.

وفجأة تذكرت حديثها مع رافاييل كويراس في طريقهما الى مطار بوابلا والأجوبة السلبية الحازمة التي ردّ بها على سؤالها المتعلق بالزواج. وتساءلت عن سبب ذلك الاصرار والعناد. هل خذلته احدى النساء في الماضي، أم انه مجرد انسان يكره النساء ولا يطيق اقترابهن منه؟ السؤال الأول غير محتمل، وكذلك الثاني! فهو يبدو رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى، وبالتالي فليس من المحتمل انه من

الأشخاص الذين يكرهون الجنس الآخر. ومع ذلك فانه لم يعرها أي اهتمام! وتململت في سريرها عندما تذكرت مدى البرودة في معاملته لها. وضعت وسادتها تحت رأسها وعزمت على النوم. غداً، وليس اليوم، ستفكر بأمور الغد. . .

استيقظت على صوت انسان يفتح الستائر والنوافذ. غطّت نفسها بسرعة وفتحت عينيها بتأن لتجد أمامها صبية هندية جميلة تبتسم لها وتحييها بالاسبانية الممزوجة باحدى اللهجات المحلية. ردّت ميراندا على التحية بالمثل وجلست في السرير، فيما كانت الخادمة تحضر لها طبقاً عليه ابريق من القهوة الطازجة وفطور الصباح. نظرت الى ساعة يدها فتبين لها انها نامت لساعات عدة اذ كان العقربان يشيران الى ما بعد التاسعة بقليل. شربت قهوتها وقامت من سريرها لتفتح الباب المزدوج الذي يؤدي الى شرفة تطل على الوادي الأخضر. نظرت بارتياح الى الأزهار الرائعة الجمال وتأملت النهر الذي يشق طريقه بين الصخور والحجارة في أسفل الوادي. تنشقت الهواء العليل الذي كان يهب بهدوء وسكينة، وراحت تتطلع بعيداً علها تشاهد مبنى الارسالية حيث تقيم لوسي. هل أخبرها أحد يا ترى بوصول خالتها؟ ولكن. . . أليس من المعقول ايضاً الا تكون هذه الفتاة ابنة شقيقتها؟ لا، يجب ان تكون! واذا كانت لوسي حية ترزق، فثمة احتمال بأن والديها لا يزالان على قيد الحياة!.

وهمّت بالخروج الى الشرفة الا انها امتنعت عن ذلك في اللحظة الأخيرة. وقالت لنفسها باسمة ان من المؤكد ان السيدة ايزابيلا لن يعجبها خروج ضيفتها نصف العارية الى مكان يراها منه خدمها. . . وابنها العازب! عادت الى الغرفة ومنها الى الحمام الداخلي حيث وقفت بضع دقائق تحت شلال قوي وبارد من المياه المنعشة. وما ان انتهت من ارتداء ثيابها حتى سمعت الباب يطرق بنعومة. استدارت بدهشة واضحة وقالت:

«نعم!».
دخلت مديرة المنزل المسنّة وقالت لها بتهذيب واحترام:
«اسعدت صباحاً يا آنستي. ابلغتني ايتاز أنك بحاجة لشيء ما».
ابتسمت ميراندا وهي تحييها قائلة:
«انك بالتأكيد تعنين الفتاة التي أحضرت لي الفطور! لا، لا، لم أطلب منها شيئاً. كل ما في الأمر اني سألتها عما اذا كانت تتحدث بغير الاسبانية، التي لا أفهمها».
«انها فتاة أمية».
ارتبكت ميراندا وحاولت تغيير الموضوع قائلة:
«شكراً على الفطور الرائع».
«هذا من واجبنا، يا آنسة».
«من المؤكد ان السيد خوان ينتظرني على مضض!».
«ينتظرك يا آنسة؟».
«نعم، كي يأخذني للقاء ابنة... للقاء الطفلة».
«اوه. اوه! لا يا آنسة، فالسيد خوان يتناول طعام الفطور في الحديقة».
شكرتها ميراندا وبدأت تجمع ثيابها التي تبعثرت على الأرض عندما فتحت حقيبتها في الليلة السابقة. تنحنحت جيزابيل وسألتها بأدب:
«هل تسمحين لي يا آنسة بترتيب حاجياتك؟».
نظرت اليها ميراندا باستغراب قائلة:
«لا، لماذا؟ يمكنني أنا القيام بذلك».
«لا تزعجي نفسك، يا آنسة. أنا سأهتم بهذه الأمور».
«هذا لطف منك يا جيزابيل. ولكن...».
«انه من صلب مهامي وواجباتي يا آنسة».
قررت ميراندا عدم الاسترسال في المجادلة، وبخاصة لأنها

مشوقة جداً لرؤية ابنة شقيقتها. وراحت تتخيل الارتياح الذي سيبدو على وجه الطفلة عندما ستشاهد خالتها الحبيبة وتتذكر الأيام الحلوة التي أمضتها معها. تركت جيزابيل تهتم بالغرفة وتوجهت الى القاعة الرئيسية. وفجأة، شاهدت أمامها صبية سمراء جذابة تحمل ملامح عائلة كويراس المميزة. وعندما لاحظت ان الفتاة المكسيكية لن تستهل الحديث، بادرت ميراندا الى القول:
«صباح الخير. أنا ميراندا لورد، وأنت بالتأكيد قريبة السيد خوان. هل بامكانك ارشادي الى مكان وجوده الآن».
ردّت الفتاة بشيء من الغطرسة قائلة:
«أنا كارلا كويراس وخوان شقيقي. ثم... اني اعرف من أنت».
تضايقت ميراندا من الجملة الثانية، التي قيلت بشيء من الاحتقار. وشعرت بأن عليها توجيه كلمات بالقسوة ذاتها، ولكنها اكتفت بالقول:
«قيل لي انه يتناول فطوره في الحديقة، وأنا أود ملاقاته».
دلتها كارلا بقلة اكتراث، فشكرتها ميراندا بكلمة واحدة وتوجهت نحو الحديقة وهي تشعر بشيء من العصبية والانزعاج. وسألت نفسها عما اذا كان للشقيقين اللذين التقتهما أمس أي شقيقات أو أشقاء غير هذه الفتاة المتغطرسة! ولاحظت بانقباض أن خوان هو الشخص الوحيد الذي تحدّث اليها بارتياح وتودد منذ وصولها الى المكسيك. وصلت الى الباب المؤدي الى الحديقة فرأت خوان يجلس الى طاولة زجاجية كبيرة، يدخن غليونه ويشرب القهوة. وما ان احسّ بوصولها، حتى هبّ واقفاً واستقبلها بحرارة صادقة قائلاً:
«آنسة لورد! كنت أفكر بك لتوي. تفضلي بالجلوس. هل تريدين فنجاناً من القهوة؟».
«لا، شكراً لك يا سيد... اعني، يا سيد خوان! جئت

لمقابلتك، كي . . . كي استفسر منك عن كيفية الذهاب الى الارسالية».

«ولكن يا آنستي، أنا ساوصلك بنفسي».

برقت عيناها ارتياحاً وسألته بلهفة:

«حقاً؟ وهل هي بعيدة من هنا؟».

«بعيدة؟ لا يا آنسة. انها في الجزء الآخر من الوادي».

«أوه، عظيم!».

«هل نمت جيداً يا آنسة؟».

«بارتياح تام. شكراً».

ثم نظرت حولها وقالت له باعجاب:

«انه مكان جميل للغاية».

«هذه المنطقة هي ملك لعائلة كوبراس منذ . . . منذ . . .».

أكمل جملته بالاسبانية وسألها بحياء كيف تترجم ذلك الى الانكليزية. ابتسمت وقالت بهدوء:

«منذ اجيال عديدة».

«نعم، منذ اجيال عديدة. آسف، لأن لغتي الانكليزية ليست جيدة».

ضحكت ميراندا وقالت:

«انها افضل بمئة مرة من لغتي الاسبانية».

ابتسم خوان بارتياح وقال:

«ولكن رافاييل، اخي، يتحدث الانكليزية بطلاقة . . . أليس كذلك؟».

انتظر جوابها ولكنها اكتفت بهز رأسها علامة الموافقة بدون تعليق لم تشأ التفكير برافاييل كوبراس، فهو مسؤول عن انقباضها وتململها في الليلة السابقة. وقررت خلال الصباح محو صورته من مخيلتها. الا ان مجرد ذكر اسمه أعاد زرع صورته بقوة مزعجة. وسرّت كثيراً عندما حوّل خوان تفكيرها عن رافاييل بتوجيه سؤال كانت معظم

كلماته بالاسبانية.

«هل تعني انني احب تعلّم اللغة الاسبانية؟».

صفق لها باعجاب وقال:

«عظيم! عظيم! انها ليست لغة صعبة او معقدة وسوف يساعدك رافاييل كثيراً، اذا سمح له وقته بذلك».

«أوه، ولكن ذلك ليس ضرورياً. اعني . . . اعني انه لا يمكنني ازعاج شقيقك بمثل هذه الأمور البسيطة».

«ماذا تقولين؟ انه يمضي معظم وقته بعيداً عنا وهذه هي فرصة طيبة كي تجعله يمضي المزيد من الوقت معنا. سوف أتحدث اليه بهذا الصدد».

«أوه، لا، ارجوك . . .».

قاطعها خوان مبتسماً وهو يوجه اليها سؤالاً بالاسبانية، منتظراً منها ان تفهم معظمه او على الأقل بعضه. الا ان معلوماتها كانت ضعيفة جداً فظلّت تحدّق به وتنتظر منه ايضاحاً او تفسيراً، الى أن سمعت صوتاً ناعماً يقول لها:

«يسألك شقيقي، يا آنسة، عما اذا كنت متشوقة لرؤية الطفلة».

استدارت ميراندا بدهشة لتشاهد الصبية التي تحدثت معها قبل قليل. يبدو انها استبدلت ثيابها كما انها تحدثت معها بلهجة تقل عنفاً وقسوة عن السابق. يا لهذا التحول المفاجيء! ابتسمت لها ميراندا وشكرتها بامتنان على مساعدتها، فيما كان خوان يقوم عن كرسيه ويقول:

«آسف، يا آنسة، كنت شارد الذهن! ولو لم تنقذني شقيقتي المترجمة البارعة لكنت اوقعت نفسي بورطة لغوية».

ثم نظر الى اخته وقال لها:

«كونستانسيا، تعالي اعرفك على ضيفتنا الجميلة».

كونستانسيا؟ ماذا يقول خوان؟ أليس اسمها كارلا؟

«كيف حالك، يا آنسة لورد؟».

صافحت ميراندا اليد الممدودة اليها وهي تقول بدهشة واستغراب:

«ولكن. . . ولكن الم نلتق قبل قليل؟ في القاعة؟».

قطبت الفتاة حاجبيها وهزت برأسها نفياً. ثم انفرجت اساريرها وقالت:

«لا شك انك التقيت شقيقتي كارلا. يبدو انها انتهت من ركوب الخيل لهذه الصباح».

ابتسمت ميراندا بحياء قائلة:

«آسفة لهذا الاشكال! انكما تشبهان بعضكما الى درجة مذهلة!».

«اني اكبرها بخمس عشرة دقيقة فقط».

قالت ميراندا لنفسها انه كان عليها معرفة ذلك. فمع ان هذه الفتاة تشبه رافاييل كثيراً من حيث الجاذبية والوسامة، الا ان شخصيتها ومظهرها الخارجي هما اكثر نعومة ورقة. هذا، في حين ان كارلا تشبهه اكثر من حيث التصرف ومعاملة الآخرين. وقطع عليها خوان حبل تفكيرها عندما سمعته يقول لشقيقته:

«اننا ذاهبان الى الارسالية، يا كونستانسيا، فلماذا لا تأتين معنا؟ سيكون وجودك. . . مفيداً لنا».

ترددت كونستانسيا وقالت بتهذيب:

«سيسرني ذلك، اذا لم يكن للآنسة لورد أي اعتراض على هذا الاقتراح».

«أرجوك ان ترافقينا. لوسي، او بالأحرى الطفلة الموجودة هناك، تعرفك. وحتى لو كانت ابنة شقيقتي، فانها قد لا تعرفني بسبب فقدانها الذاكرة».

«حسناً. امهلاني خمس دقائق».

توجهوا الى الارسالية بسيارة خوان الزرقاء المكشوفة التي كان

يقودها بنفسه، مع انه اقر لميراندا بانه لا يحب كثيراً قيادة السيارات ويفضل عادة الجلوس قرب سائقه المتمرس. وفي الطريق، كانت كونستانسيا تشرح لضيفة العائلة بصبر وأناة عن الأزهار البرية الجميلة التي كانت تثير اعجاب الزائرة البريطانية. وشاهدت ميراندا عدداً كبيراً من الأكواخ التي يسكنها العمال، بالاضافة الى مخزن ومرآب وعيادة طبيب. وظنت في وقت ما انها شاهدت سيارة رافاييل أمام احد المباني، ولكنها لم تتأكد من ذلك. ومع انها لاحظت افتقار تلك الأكواخ الى الكهرباء وقساطل المياه، الا انها امتنعت عن التعليق على ذلك مخافة اغضاب خوان وخسارة صداقته. وما ان غابت الأكواخ عن ناظرها وبدأت السيارة تتجه صعوداً، حتى اشارت كونستانسيا الى دير صغير ابيض قائلة:

«هناك! ذاك هو المكان الذي تقيم فيه الصغيرة. انه الدير الذي ينطلق منه الاسقفان استيبان ودومنكو لمساعدة ابناء هذه الوادي».

«اسقفان فقط؟».

هزت كونستانسيا رأسها وردّت على استغراب ميراندا بالقول:

«من المؤسف جداً ان معظم الاساقفة الذين كانوا يعيشون هنا توفوا ولم يبق من الرعيل الأول سوى الأب استيبان. تغيرت الأيام ولم تعد المنطقة كما كانت. أخذت الآلة تحل محل الانسان و. . .».

قاطعها خوان وهو يكمل جملتها بشيء من الحدة قائلاً:

«وأخذ رافاييل يرسل الشبان الى المدينة!».

«يقول لهم ان الأوضاع المعيشية هناك أفضل من هنا. كما ان دخلهم في مصانع المدن اكثر بكثير مما تعطيهم انت، يا خوان».

«هراء! فالوادي ارضهم وموطنهم».

«انهم لا يشاركونك هذا التعلق بالأرض، يا عزيزي. لا

تلمهم ان هم حاولوا السعي وراء حياة أرغد ووضع معيشي أفضل».

«أنا لا ألومهم، يا حبيبتي. ولكن رافايل هو الذي يجعلهم متذمرين وغير قانعين!».

ابتسمت كونستانسيا وهي تنظر الى ميراندا وتقول لها:

«كما ترين، فلكل من الشقيقين العزيزين وجهة نظر مختلفة بالنسبة الى الناس. كل منهما محق ببعض الشيء في رأيه. فخوان مثلا يصر على ان الانسان لا يمكن ان يفتقد الأشياء التي لا يملكها او لا يعرفها، في حين ان رافايل يفكر. . . يفكر كطبيب. فهو لا يرى الا المرض والحرمان. انه لا يعبأ ابداً بانجازات آبائنا واجدادنا الذين زرعوا هذه البراري واعتنوا بها حتى اصبحت على ما هي عليه الآن. . . واحة من الخصب والمدنية. انه يعتبر ان هذه الانجازات ما هي الا اقطاعية بغيضة متوارثة منذ مئات السنين ومبنية على استغلال السكان الاصليين من الهنود».

تدخّل خوان بحدة وعصبية قائلا:

«انه انسان لا يبالي بالتراث والتقاليد والأرض».

«لا يا خوان! انه انسان ذو مثل عليا يعيش بموجبها ولا يتخلى عنها».

«هذا كلام منمق لا يعني شيئا».

«لا، يا اخي! انه يعني ان رافايل يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الانسان أهم من الأرض والممتلكات، وهو لا يعترف بنمط حياتنا الذي يعتمد المادة فوق كل شيء آخر».

قال خوان جملة غاضبة بالاسبانية ثم سأل شقيقته بلغة الضيفة:

«وأنت، يا عزيزتي، هل تؤمنين بهذه المثل العليا؟».

خرجت كونستانسيا من السيارة الفخمة وهي تجيبه بهدوء قائلة:

«لم أقل اني أوافقه الرأي. فأنا كسولة وأتمتع جداً بهذه البحبوحة

المادية المتاحة لدي بدون أي جهد او عناء، بحيث يصعب علي مشاطرته معتقداته الى درجة الموافقة التامة. ومع ذلك، فان اقتناعه بهذه المثل وقدرته على تطبيقها يثيران في نفسي الاحترام والتقدير. . . والاعجاب».

كانت ميراندا تصغي بانتباه لحديثها بدون ان تحاول التدخل او حتى التعليق بشيء. ماذا كانت الفتاة تعني عندما قالت ان رافايل يفكر كطبيب؟ هل هو حقاً طبيب؟ ارادت ان تسأل، ولكن اقترابهم من الدير واحتمال مشاهدة لوسي طردا جميع الأفكار الأخرى من رأسها. كانت متشوقة جداً لرؤية لوسي ورفضت بالتالي الاعتراف بالخوف الذي اعتراها من احتمال ألا تكون تلك الطفلة فعلا ابنة شقيقتها. وأحست ميراندا رغماً عنها بجو من الحزن والكآبة يسيطر عليها. وما هي الا لحظات، حتى خرج رجل وطفلة ووقفا أمامهم. انها هي! انها لوسي التي لم ترها منذ ثمانية عشر شهراً! هذه هي حركاتها السريعة والعصبية الى حد ما، التي ورثتها بالتأكيد عن والدتها! رباه، انها ابنة اختي! ولكنه بدا ان لوسي لم تعرف ميراندا، اذ انها حيّتها وكونستانسيا بابتسامة مجاملة وهرعت نحو خوان فاتحة ذراعيها ورامية بنفسها عليه. وقالت له بحماس ظاهر، فيما كانت تعانقه بحرارة:

«عمي خوان، عمي خوان! اخبرني الأب استيبان انك ستأتي. هل سنبقى؟ هل ستأخذني معك الى البيت؟ ستأخذني، أليس كذلك؟».

«اهدأي يا صغيرتي!».

قالها بالاسبانية وبلهجة آمرة، ولكنه كان يبتسم بزهو وانتصار. أليس هذا اللقاء المؤثر استعراضاً محاباً للضيفة الكريمة كي تشاهد بنفسها مدى تعلّق الطفلة به؟ عادت الطفلة الى السؤال، فردّ عليها بهدوء وحنان:

«سوف نرى، يا عزيزتي، سوف نرى!».

«ولكنك وعدتني! قلت لي. . .».

«لحظة واحدة يا حبيبتي! احضرت معي شخصاً لمقابلتك. . .».

«عمتي كونستانسيا؟ اعرف. . .».

«لا يا عزيزتي، ليس فقط العمة كونستانسيا. انظري. . . هناك! هل تعرفينها؟ السيدة التي تقف قرب كونستانسيا؟».

أحسّت ميراندا بأن الدماء جمدت في عروقها وبأن دقات قلبها تُسمع في كافة أرجاء الدير والوادي. وبعد ان تأملتها لوسي لبعض الوقت، سألت خوان وقد نفد صبرها:

«ربما، ربما».

تدخلت ميراندا على الفور قائلة للطفلة وهي تقترب منها على مهل:

«طبعاً يجب ان تعرفيني، يا لوسي! ألا تتذكرينني؟».

لم تترك الطفلة جانب خوان والأسوأ من ذلك انها لم تظهر اي اهتمام او انفعال بكلام هذه السيدة. . . الغريبة، بل سألتها بشيء من الحدة:

«لماذا تطلقين عليّ مثل هذا الاسم؟ لوسي! هذا ليس اسمي! لا احد يعرف اسمي!».

أصرت ميراندا بهدوء وروية على الاستمرار بمحاولتها شبه اليائسة، قائلة:

«أنا أعرف اسمك، يا لوسي. انه لوسي كارمايكل».

نظرت الطفلة بهلع وذهول نحو الانسان الذي يهتم بها ويرعاها وهي تردد:

«لا. . . لا، انه ليس. . .».

وضع خوان يديه على كتفي الطفلة مطمئناً ومواسياً، فيما كان يقاطعها قائلاً لميراندا:

«اعتقد ان عليك عدم اخافتها على هذا الشكل، يا آنسة لورد. ربما كان من الأفضل ان تتبعي اسلوباً آخر في. . .».

توقف خوان عن اتمام جملته عندما دخل رجل طويل القامة ساحة الدير بصورة مفاجئة وسأل شقيقه بلهجة قاسية:

«ما بك، يا خوان؟ هل أنت خائف من أن تستعيد الطفلة ذاكرتها؟».

٤ - ضيفة القصر

عادت ميراندا الى القصر مع رافاييل. لم تكن تريد ذلك، وكانت تعلم أنّ رافاييل لم يكن ايضاً راغباً بذلك. ولكن خوان أصرّ على هذا الأمر، قائلاً: انه بحاجة لبعض الوقت كي يتحدّث الى الطفلة على انفراد ويشرح لها حقيقة الوضع بهدوء وروية.

لم تقتنع ميراندا بكلام خوان. انها وحدها المؤهلة للتحدّث مع لوسي في هذا الشأن، ولتحاول ان تشرح لها بعض الظروف التي ادّت الى وجودها هنا. ولكن خوان أصرّ على موقفه. ومع أنّ رافاييل كان يعارضه الرأي، الاّ انه لم يكن بامكانه الاصرار على موقفه بدون المجازفة بحصول خلاف حاد مع شقيقه. وكان واضحاً ان لوسي تصدّق خوان الى أبعد الحدود. ومتعلقة به كما يتعلق الغريق بأي

شيء يجده طافياً على سطح الماء. ومع انه كان بامكانها تفهم ذلك، الاّ انها لم تفهم مثابرة خوان على تقوية تلك الروابط. وكان واضحاً انه هو الوحيد القادر على الحدّ من سيطرته على الطفلة، وانه الوحيد الذي يتمكّن من تسيير رغباتها بدون حصول ردّات فعل هستيرية واليمة. وبدا لميراندا أنّ خوان لم يكن بأي حال من الأحوال على عجلة من امره للتخلي عن تلك السيطرة!.

اما الأب استيبان فكان له موقف مختلف، فهدفه الوحيد هو سعادة الطفلة ورفاهيتها. أعرب لميراندا عن تفهمه لحقيقة مشاعرها، ولكنه حثّها على ان تتحلّى بالصبر وعلى الاّ تتوقع انجاز الكثير في وقت قصير. لوسي طفلة في الثامنة من عمرها، ومن الطبيعي انها كانت بحاجة لمن يساعدها ويرعاها بعد تلك المحنة الصعبة التي تعرّضت لها. الاّ انّ الطبيعة سوف تأخذ مجراها في الوقت المناسب وستعود اليها ذاكرتها عاجلاً ام آجلاً. واقترح الكاهن الجليل منح الطفلة بعض الوقت، خوفاً من ان يؤدي التسرّع الى حدوث ردّ فعل سلبي يندم عليه الجميع.

ولكن... كم ستطول فترة الانتظار؟ متى ستتذكر الطفلة هويتها الحقيقية، وأنّ والديها قتلا بحادث طائرة؟ مضت على الحادثة حتى الآن أربعة اشهر، فكم من شهر آخر سينقضي قبل ان تتذكر؟ وهل من المتوقع ان تظلّ هي في المكسيك طوال فترة الانتظار المطلوبة؟ لا! لا يمكن! فبالاضافة الى أنّ مديرها منحها اجازة بدون راتب لمدة اسبوعين فقط، فهي غير قادرة على قبول ضيافة آل كوبراس الى ما لا نهاية! كما أنّ وضعها المادي لا يسمح لها بالبقاء في احد الفنادق البسيطة لأكثر من عشرة ايام! وتنهدت رغماً عنها، ولكن ذلك استرعى انتباه رفيقها الذي قال لها:

«ماذا في الأمر، يا آنسة؟ أليس الوضع مستقيماً كما كنت تتصورين؟».

«انت تعرف انه ليس كذلك! المشكلة اني لا اعلم ما هو متوقع

مني!».

«ماذا تعنين؟».

تنهدت ميراندا مرة اخرى وسألت رافاييل:

«ماذا سيحدث اذا ظلّت لوسي على هذا الحال ولم تتذكرني؟».

«اذن انت متأكدة من انها لوسي؟».

«اوه، طبعاً، انها لوسي. ولكن. . . ولكن شقيقك لا يسهّل الأمور كثيراً».

«وهل كنت تتوقعين منه عكس ذلك؟».

«لا أعرف. لا اعرف ماذا كنت أتوقع. أعتقد أنّ احتمال تعلّقه بالطفلة الى هذه الدرجة لم يخطر ببالي. هذا ما كنت تحاول قوله لي في طريقنا الى غواد اليماء، أليس كذلك؟».

«من بين أمور أخرى. ويجب ايضاً ان تعلمي ان اخي سعيد جداً باخلاص الطفلة له وتعلقها به. وهذا الأمر جديد بالنسبة اليه، ولكنها مرحلة سوف تمر». .

«وماذا سأفعل انا طوال هذه الفترة؟ من المؤكد انه ليس بامكاني البقاء هنا الى ان تستعيد لوسي ذاكرتها!».

«لمَ لا؟».

دهشت ميراندا الى حدّ بعيد وأجابته باستغراب شديد:

«لمَ لا يا سيد، انا انسانة اعمل في احدى الشركات وقد منحني المدير اجازة اسبوعين كي انهي جميع المشاكل المتعلقة بابنة اختي. وسوف احتاج الى جزء من هذه الفترة لاعداد بعض الترتيبات الضرورية لدى عودتنا الى لندن».

هزّ رافاييل رأسه قائلاً:

«هذه تقديرات مفعمة بالأمل!».

«انها ليست تقديرات! انها الحد الأقصى! جورج. . . أعني السيد هولام مديري في العمل، شخص يتطلّب الدقة المتناهية».

نظر اليها رافاييل وقال بلهجة ساخرة:

«تتحدثين عنه بلهجة لا يستخدمها عادة العمال والموظفون».

«انت مخطئ»، يا سيد. فالناس في بلادي ليسوا. . . ليسوا رسميين كما تتصور. في اي حال، فان هذا الأمر لا يتعلّق بموضوعنا».

صمتت لحظة ثم عادت الى متابعة حديثها قائلة:

«لا يمكنني البقاء هنا اكثر من عشرة ايام حتى لو اردت ذلك».

«لمَ لا؟».

أزاحت وجهها بعيداً وقالت له بتأفف واضح:

«اذا كان لا بدّ لك ان تعلم، فالسبب الوحيد هو ان امكانياتي المادية لا تسمح لي بذلك».

عبس رافاييل وأجابها على الفور:

«ولكن اقامتك في مقر العائلة لا تكلفك شيئاً».

«ربما لا. ولكنني غير قادرة على البقاء هناك الى اجل غير مسمى!».

«اعذريني على تكرار السؤال. لمَ لا؟ من الواضح انك تعقّدين اموراً تبدو لي طبيعية وبسيطة للغاية».

شهقت ميراندا استغراباً وقالت:

«يسهل عليك انت التحدث هكذا. ولكن شقيقك قد لا ينظر الى الامور بهذا المنظار!».

«قد لا ينظر الى اي امور، بأي منظار؟».

«الى اقامتي في القصر. ألم تخبرني انت أنّ لا علاقة لك به وبالممتلكات حوله؟ أليس هو صاحب القصر وسيده؟».

«أوه! اسمياً، نعم».

«اسمياً؟».

«انها مسألة معقدة، يا آنسة. يكفي ان اقول لك انني اذا رغبت انا في اقامتك هناك، فان اخي لن يعترض».

هزّت ميراندا رأسها وقالت:

«يجب ان اعود».

«مع ابنة شقيقتك... او حتى بدونها؟».

تأثرت من تلك الملاحظة وسألته بهدوء حزين:

«هل تعتقد انّ شقيقك سيبقيها هنا؟».

«توحي لهجتك بانه سيبقيها رغم ارادتها. ولكنّ الأمر قد لا يكون هكذا. فاذا لم تستعد... لوسي... ذاكرتها، فاني اسمح لنفسي بالقول انها قد لا تكون راغبة في مرافقتك الى لندن. ليس في الوقت الحاضر، على الأقل».

ضغطت ميراندا بعصبية على شفتيها كي تمنعها من الارتجاف، وقالت بأسى:

«اوه، يا لهذه الورطة!».

«ورطة، يا آنسة؟ على الأقل، لوسي سعيدة هنا. الا يعني ذلك شيئاً بالنسبة اليك؟».

«يسهل عليك جداً ان تطلق كلمات كهذه. ولكن، ماذا سأفعل انا؟».

«اليس من المبكر جداً ان يساورك القلق عما سيحدث؟ الطفلة لا تتذكّرك، وعليك البدء بالتعرف اليها مرة اخرى».

«وكم تتوقع ان تطول فترة التعرف الجديدة؟ كم ستحتاج لوسي من الوقت كي تتمكّن من التخلّي عن... عن كل ما يحيط بها هنا من ثراء وابهة ودلال؟».

«من يدري؟».

«يمكنني اخذها معي، بغض النظر عن كل هذه الأمور».

«صحيح. ولكنني لا اتصور انك سترغمين الطفلة على مرافقتك. الن تكون بداية غريبة لحياتكما معاً؟».

«انك انسان... انسان عملي للغاية، اليس كذلك؟».

ثم حدّقت به بتمرّد قائلة:

«ولكن... لا علاقة لك بالموضوع. يا للأسف، لأن لوسي ليست في عهدتك انت!».

خفف رافاييل من سرعة سيارته ثم أوقفها كلية، لأنّ قطيعاً من الأغنام كان يعبر الطريق. حيّاه الراعي بلهجته المحلية، فأخرج رافاييل رأسه من النافذة وردّ عليه التحيّة بالمثل. وما ان انطلق بالسيارة مجدّداً، بعد مرور جميع الأغنام، حتى التفت اليها وسألها:

«ماذا تتصورين، يا آنسة، أنني سأكون اكثر استعداداً من اخي للتخلّي عن الطفلة؟».

ارتبكت ميراندا ولم تعرف حقاً كيف تجيب على مثل هذا السؤال المفاجىء. فالانطباع الذي تعمّد رافاييل ان يعطيه الآن عن نفسه لم يكن محبّذاً. الاّ انها، ولسبب تجهله، ظلت مؤمنة بأنه رجل شريف... رجل لا يمكن ان يستخدم اساليب شيطانية وملتوية كي يكسب الطفلة.

واخيراً قالت له:

«لا اعرف».

ثم نظرت اليه وسألته بهدوء

«ماذا يفعل شقيقك ذلك؟ ما هو السبب؟ الا يعلم انّ ذاكرة لوسي ستعود اليها عاجلا ام آجلا؟».

«لا يمكنني الاجابة عن اخي، يا آنسة. الافضل ان تسأليه هو بالذات».

«لا اعرف... لا اعرف كيف سأسأله! اوه، رباه! كم اتمنى لو انني اعرف ماذا يتحتّم عليّ القيام به! اتمنى... اتمنى لو ان شخصاً ما...».

وانهمرت الدموع من عينيها، ولكنها كانت تعلم أنّ الشفقة على النفس لن تحقق لها شيئاً. ما بها! فلطالما اعتبرت نفسها قادرة على مواجهة اي طارىء، وانها شابة متحررة تعتمد على ذاتها! ومع ذلك، شعرت فجأة بانها ضعيفة لا حول لها ولا قوة كطفل رضيع على ذراع امه.

أدار رافاييل مقود السيارة نحو طريق ترابي يمر عبر منطقة الأكواخ، حيث كان الأطفال والنساء يحيّونه بحرارة، وشاهدت ميراندا عن كثب الاوضاع المتردية لهؤلاء الناس، وخاصة بالمقارنة مع الثراء والازدهار اللذين ينعم بهما القصر واسياده. انها لجريمة ان يكون هناك مثل هذا الفارق الشاسع في مثل هذا المجتمع الصغير والضيق! ولكنها لم تقل شيئاً لأن افكارها تحوّلت الى معرفة المكان الذي يقصده رافاييل. وما هي الاّ لحظات، حتى وصلا الى منطقة مرتفعة تشرف على النهر ويقع في وسطها بيت حجري صغير تحيط به حديقة متواضعة. أوقف رافاييل السيارة وقال لها بلهجة جافة الى حدّ ما، عندما لاحظ تشككها:

«تعالي! سأقدم لك بعض القهوة، يا آنسة».

«هذا هو. . . هو بيتك؟».

جاء سؤالها على هذا النحو يعكس مدى دهشتها، ولكنها ندمت على اظهار استغرابها عندما أجابها بشيء من الحدّة قائلاً:

«نعم، يا آنسة. هذا هو المكان الذي أعيش فيه اثناء وجودي هنا. انه ليس على اي جانب من الأبهة والفخامة كالقصر، ولكنه نظيف ويناسبني تماماً».

نزلت ميراندا من السيارة وهي تكاد تتعثر، وقالت له بتلعثم:

«انا. . . انا لم اعن. . . ! ما اريد قوله هو انه. . . انه بيت جميل!».

فتح الباب ودعاها الى الدخول قبله، ثم اشار الى مقعد مريح متواضع قائلاً:

«تفضلي بالجلوس. لن اغيب سوى لحظات».

هل كان عليها ان تقترح اعداد القهوة بنفسها؟ ولكنها لا تعرف ما اذا كان يسكن وحده في هذا البيت! وتذكرت كلام اخته انه يفكر كطبيب. هل هو طبيب؟ هل هذا هو بيته وعيادته في آن واحد؟ وماذا كان يعني عندما قال انه يسكن هذا البيت اثناء وجوده هنا؟ اين

يمضي بقية وقته؟ اقتربت من باب المطبخ الصغير وسألته بهدوء:

«هل يمكنني المساعدة بشيء؟».

«لا، لا داع لذلك. اني اكاد انتهي من اعدادها».

شعرت ميراندا بأنها شخص غير مرغوب فيه. ومع انها لم تعرف سبباً لذلك، الاّ انها رفضت الوقوف امامه كفأرة صغيرة محاصرة. وضعت يدها على الطاولة التي بدا انها تخدم كمائدة طعام ومكتب للعمل في الوقت ذاته، وسألته:

«هل تعيش هنا بمفردك؟».

«الى حد ما».

«ماذا يعني ذلك؟».

«يعني انّ طبيب المنطقة يترك لي احياناً احد مرضاه كي اعتني به، وخاصة لأني املك غرفاً يمكن استخدامها لهذا الغرض».

«وهل انت طبيب؟».

«يحق لي ان اضع هذا اللقب قبل اسمي، اذا كان هذا ما عنيته ايتها الآنسة».

لم تفهم ميراندا تلك الملاحظة الغامضة، ولكنها راحت تتأمله فيما كان يصبّ لها القهوة. ثم قال لها:

«تفضلي! لنذهب الى غرفة الجلوس».

«لا حاجة لذلك، فلا بأس بالجلوس هنا».

تأملته ميراندا فيما كان يرفع الفنجان الى شفتيه، واستغربت مدى حشريتها لمعرفة المزيد عن هذا الرجل. انه بالتأكيد شاب وسيم وجذاب، ولكنها التقت في حياتها عدداً كبيراً من الرجال اكثر وسامة واشد جاذبية. اذن، ما هو هذا الشيء الذي يجذبها اليه ويشدّ عينيها باستمرار الى وجهه الأسمر العابس؟ وسألت نفسها عما سيكون عليه ردّ فعله فيما لو اظهرت له انها تجده جذاباً! قد يكون الامر مسلياً، ذلك انها لم تلتق طوال حياتها رجلاً آخر لا يعير شخصيتها وجمالها اي اهتمام او انتباه مثل هذا الرجل. وعضت على شفتها بشدة، وهي

تذكر نفسها بالسبب الوحيد لوجودها في هذه البلاد، ثم سألته بهدوء بالغ:

«هل تعتقد انّ علي الانتظار بضعة ايام قبل اتخاذ اي قرار فيما يتعلق بابنة اخي؟».

«من الطبيعي، يا آنسة، ان الأمر عائد لك كي تقرري ما هو الأفضل».

«لماذا تصر على مناداتي هكذا؟ آنسة! لماذا لا تناديني باسمي، ميراندا؟».

«وهل يناديك اخي باسمك الاول، يا آنسة؟».

ردّت عليه بشيء من العصبية قائلة:

«لا، طبعاً لا. اني لا اكاد اعرفه».

«وهكذا بالنسبة اليّ، يا آنسة».

حاولت ان تقنع نفسها بانه على حق. الاّ انّ علاقتها معه تختلف عما هي عليه مع شقيقه، وذلك لسبب او لآخر. هل بدأت تعتمد على رافاييل الى حدّ ما؟ احتججت على ملاحظته بهدوء وتردد، قائلة:

«اشعر... اشعر كأني اعرفك منذ زمن. لا اقدر... لا اقدر ان اشرح لك ذلك بالضبط، ولكن... ولكن الوضع معك يختلف بعض الشيء».

ادهشها رد فعله القاسي الذي عكسته ملامح وجهه العابس وكلماته الجارحة، اذ قال ببرودة مزعجة:

«انت مخطئة، يا آنسة. فعلاقتنا ليست مختلفة بأي حال من الاحوال! اخي، وليس انا، هو الشخص الذي يجب عليك التحدّث معه والاعراب له عن شكوكك ومخاوفك!».

ثم وضع فنجانه بقوة على الطاولة وقال:

«وبما انك انتهيت...».

قاطعته بعزة وانفة قائلة:

«لم انته بعد! ثم... اني لا افهم سبب غضبك وانزعاجك، مع

انني لم اتفوّه الاّ ببضع كلمات على سبيل المجاملة».

«وانا لست بحاجة الى مجاملتك، يا آنسة».

ارتجفت يدها عندما امسكت بفنجان القهوة، ولكنها قالت له بتحدٍ:

«ما هو السبب اذن في احضاري الى هنا، اذا كنت تعتبر وجودي مثيراً للاشمئزاز الى هذه الدرجة؟».

«اذا كنت مصرّة على معرفة السبب، فهو لأني شعرت بالأسف نحوك».

«أوه... اوه... حسناً!».

شربت ما تبقى من القهوة بجرعة واحدة كادت ان تحرق معها فمها ولسانها، وقالت له بحدة واضحة:

«انتهيت، ويسعدني جداً الآن ان اذهب!».

لم يفه اي منهما بكلمة واحدة طوال الطريق حتى القصر. ولما وصلا، نزلت من السيارة وقالت له بعفوية ظاهرة:

«في اي حال، شكراً على القهوة. لقد تمتعت بها، كما ان بيتك اعجبني».

تأملها رافاييل لحظة وقال لها، فيما كانت عيناه مركزتين على فمها الجميل:

«لا داعي للشكر، يا آنسة».

وما ان استعد للانطلاق بسيارته، حتى اوقفه صوت امه:

«رافاييل، رافاييل! لحظة، ارجوك!».

هرولت السيدة ايزابيلا نحو السيارة وبدأت تتكلم مع ابنها بانفعال. لم تفهم ميراندا شيئاً، الاّ انه كان واضحاً ان امراً ما يقلق السيدة المسنة. وما ان اتجهت نحو باب القصر، حتى سمعت السيدة ايزابيلا تناديها بلهفة:

«لا تذهبي، يا آنسة. اريد التحدّث معك».

وقفت ميراندا في منتصف الطريق وبدأت تعود الى حيث كانت

ولكن رافاييل خرج من السيارة وقال لوالدته بلهجة آمرة:
«يجب الّا تتدخلي، يا امي».
وجّهت الأم الى ابنها نظرة عتاب قائلة:
«لا، يا رافاييل فالأمر لم يعد يطاق. شقيقك مهووس بالطفلة وسوف يزيد تعلقه بها كلّما طالت مدّة وجودها هنا. يجب على الآنسة لورد ان تعود بها الى بريطانيا، فوراً!».
«هذا ما اريد القيام به، يا سيدة...».
قاطعها رافاييل بسرعة قائلا لها:
«تعرف امي حق المعرفة ان من القساوة والظلم بمكان ابعاد الطفلة عن الأمور الصغيرة التي اصبحت معتادة عليها، وزرعها فجأة في مجتمع لا تتذكر عنه اي شيء على الاطلاق».
سألته امه باستغراب:
«وماذا تقترح، يا رافاييل؟».
«اقترح ان تعطوا الآنسة لورد الوقت الكافي كي تتعرّف على ابنة اختها وتكسب مودتها وثقتها، وتتمكّن بالتالي من التحدث معها عن والديها».
«وكم ستطول مثل هذه الفترة، يا بني؟ وكيف ستتمكّن الآنسة لورد من التعرف حقاً على ابنة اختها، ما دام خوان يستأثر كلياً باهتمامها وانتباهها؟».
تنهد رافاييل وقال لوالدته:
«انك تعقّدين الأمور، يا امي. ليس هناك من عجلة، على الأقل... على الأقل من جانبنا نحن. أليس كذلك؟».
«اذن، فالآنسة لورد ستبقى هنا؟».
رفع رافاييل نظرة نحو السماء وعاد يسأل امه:
«وهل من مكان آخر يمكنها البقاء فيه؟».
«حسناً».
شعرت ميراندا بانزعاج بالغ وقالت:

«واذا كان هناك مكان آخر...».
نظر اليها رافاييل بعينين باردتين اخرستاها، قائلاً لها بلهجة جادة:
«ستبقين هنا، يا آنسة. أليس كذلك، يا امي؟».
تطلّعت اليه والدته باستغراب وسألته بهدوء:
«هل تصدر أوامر، يا رافاييل؟».
استدار نحو سيارته وهو يقول:
«نعم، نعم. يجب ان اذهب الآن. وعدت الطبيب بالذهاب لمعاينة الطفل كاليرو».
«ماذا وعدتني انا، يا بني؟».
«انا... انا ماذا تريدين مني؟».
«اريد منك ان تأتي الى هنا، يا رافاييل. وعدتني بانك ستأتي مراراً. أليس لي الحق ببعض وقتك، يا بني؟».
«يستحيل عليّ ذلك هذا اليوم».
«اذن، غداً بإذن الله. تعال وتناول معنا العشاء. اني متأكدة من انّ الآنسة لورد ستسر برؤيتك».
ادار رافاييل محرك السيارة وهو يقول، قبل ان يذهب بدون وداع:
«حسناً، ساحضر غداً للعشاء».
خيّم الصمت بضع لحظات بعد ذهابه، قطعته ميراندا بالقول:
«لا ادري كيف اشكرك، يا سيدة ايزابيللا، على سماحك لي بالبقاء».
«لا تشكريني، يا آنسة. ليست لدي اي صلاحية هنا. اني اعيش في هذا القصر لأن ابني سمح لي بذلك».
«في اي حال، انا ممتنة جداً. وكل ما ارجوه واتمناه ان تتعرّف عليّ لوسي».
«وهذا ما اتمناه انا ايضاً، يا آنسة».
وما ان وصلتا الى الباب، حتى توقفت السيدة المسنة وسألت

ميراندا:

«اخبريني، يا آنسة. الى اين ذهبت مع ابني؟».

«الى الدير، طبعاً، لمقابلة لوسي!».

«انا لا اعني خوان، يا آنسة! الى اين ذهبت مع رافاييل؟».

«اوه! اوه! ذهبنا... ذهبنا الى بيته، يا سيدة ايزابيلا».

«ذهبت الى منزل ابني، يا آنسة؟ هل ذهبت معه بمفردك؟ لماذا ذهبت الى بيته؟».

ارغمت ميراندا نفسها على الابتسام وقالت:

«لنشرب القهوة. انه... انه بيت جميل، اليس كذلك؟ صغير، ولكنه بمنتهى الجاذبية. كما اني اعتقد انه ملائم جداً لمرضاه».

«انا لم اشاهد ذلك البيت قط، يا آنسة. بالنسبة اليّ، القصر وحده كان وسيظل دائماً منزل ابني».

«نعم. يحس الأهل دائماً بشيء من الفراغ عندما يغادر احد افراد العائلة...».

قاطعتها السيدة المسنة بعصبية نسيت معها المجاملة واللياقة، اذ قالت:

«انت لا تعرفين عمّا تتحدثين، يا آنسة. هذه ليست بريطانيا، وقصر كوبراس ليس احد بيوتكم البريطانية المتواضعة! انك لا تعرفين مدى الثروة والنفوذ اللّذين يتخلّى عنهما رافاييل...».

«ولكن هناك خوان الذي يتولى...».

«كما قلت لك، يا آنسة انت لا تفهمين الوضع على حقيقته. اعذريني الآن، فلدي امور عدّة يجب الاهتمام بها».

سألت ميراندا بذهول عن سبب تلك العصبية والحدة. وقبل ان تحاول تحليل الموضوع بهدوء وروية، سمعت صوت لوسي فسارت بدون تردد نحو مصدر الصوت. كانت ابنة اختها تلعب الكرة مع خوان وكونستانسيا. ولما شاهدها خوان، لوح لها بيده وقال لها بحماس ظاهر:

«مرحباً، يا آنسة! تعالي، انضمي الينا!».

... وانضمت اليهم. فهي هنا لسبب واحد لا غير، الا وهو التعرّف على ابنة شقيقتها واعادتها معها في نهاية الامر الى بريطانيا.

٥- دعوة الى البحيرة

اعترفت ميراندا لنفسها مساء اليوم التالي انها لم تحقّق اي تقدم مع لوسي، والسبب في ذلك هو تصرّف خوان الأناني مع الطفلة. فعوضاً عن ان يشجع الفتاة على التحدّث مع خالتها، راح يلهيها ويبعدها عنها. واعترفت ايضاً أن لوسي لم تكن تعارض ذلك، لا بل انها كانت تنعم بذلك الاهتمام المتواصل وتتمتع به لدرجة الافساد.

ولكن، ماذا بامكانها ان تفعل؟ كلّما تحدثت الى لوسي، ردّت عليها الطفلة بعداء واضح معتبرة خالتها كانسان دخيل متطفل يحاول مضايقتها واقتنعت ميراندا من انه كلّما طالت فترة وجودها هنا، كلّما ازداد ارتفاع الحاجز النفسي الذي يفصل بينهما. هل يمكن ان تكون مشكلة فقدان الذاكرة التي تعاني منها الطفلة هي من صنع يدها؟ هل

من الممكن انّ الطفلة ارادت ان تنسى؟ واذا كان الامر كذلك، افليس محتملاً انها لن تستعيد ذاكرتها ابداً؟.

وتذكرت موعد العشاء الذي كانت تتمنى التملّص منه. ففي الليلة السابقة، ارسل العشاء الى غرفتها وكأن السيدة ايزابيللا ارادت بذلك ان تثبت لها انها ليست ضيفة العائلة بل انسانة فرض وجودها في القصر فرضاً. ومن ناحية اخرى، فهناك رافاييل! كذلك ثمة سبب آخر يجعلها تتضايق من الانضمام الى افراد العائلة... وهو وجود كارلا. فقد كان واضحاً من اللقاء الاول صباح اليوم الفائت والمجابهة التي جرت اثناء تناول الغداء وبعده، ان كارلا لا تحبذ وجودها في القصر.

كانت ميراندا تفضل تناول جميع وجبات الطعام في غرفتها، الاّ انها قبلت الدعوة الى الغداء لمجرد وجود لوسي. وسرها جداً ان تجد ابنة اختها قربها مباشرة، وكان هذا بالتأكيد من تدبير السيدة ايزابيللا. واثناء تناول الحلوى، اشارت ميراندا الى القطعة التي تأكلها الطفلة وقالت لها بهدوء:

«انها لذيذة جداً، ولا يفرقها عن الحلوى المماثلة في بلادنا سوى عصير الليمون والسكر. كنت دائماً تحبينها. هل تذكرين؟».

«هل حقاً كنت احبها؟ لا اذكر، يا آنسة».

اخفت ميراندا امتعاضها من استخدام الطفلة اسلوب الرسميات معها، واحتجت بلطف ونعومة قائلة:

«لا تناديني بكلمة آنسة، يا لوسي. يمكنك مناداتي بالخالة ميراندا... او يا خالتي.. او حتى ميراندا، اذا شئت. اننا قريبتان وسيكون من السخف ان تتصرفي معي كأنك لا تعرفيني او لم تشاهديني من قبل».

تدخلت عندها كارلا قائلة بتحد:

«اليس محتملاً انها لم ترك من قبل؟ كيف نعرف انك انت فعلاً ميراندا لورد؟ هل شاهدنا اي اثبات على حقيقة هويتك، يا آنسة؟».

نهرتها امها قائلة:
«كارلا! الآنسة لورد ضيفتنا. ارجوك ان تتذكري ذلك».
وتدخلت لوسي لتعيد ميراندا الى نقطة البداية، اذ سألت باستغراب:
«صحيح، يا خالتي ايزابيللا، كيف نعرف انها حقاً خالتي؟».
«انظروا!».
قالتها ميراندا بحزم وهي تنحني لأخذ حقيبتها الجلدية الموضوعة قربها على الأرض.
وقالت للطفلة الصغيرة:
«لديّ هنا بعض الصور الفوتوغرافية. هل تريدين مشاهدتها؟ انك تظهرين في معظمها. . ومعك اشخاص آخرون».
إلاّ انّ خوان سارع الى القول:
«لا اعتقد انها فكرة جيدة، يا آنسة. فالصور هي. . . كيف تقولين؟ شخصية؟ اتصور انّ استخدام آساليب الصدمة خطأ كبير، اليس كذلك؟».
أعادت ميراندا الحقيبة الى مكانها وقد ادركت بانها لن تحرز اي تقدم، طالما انّ خوان او اي فرد آخر من عائلته كان حاضراً. لا، فمن المؤكد أنّ السيدة ايزابيللا. . . ورافاييل لن يقفا في وجهها.
بعد الغداء، توجه كل من الموجودين الى غرفته للقيلولة والراحة.
وفي حوالي الخامسة، نزلت ميراندا الى غرفة الجلوس وهي ترتدي فستاناً قطنياً اخضر اللون عوضاً عن القمصان والسراويل المعتادة. وكان ذلك تنازلاً بسيطاً بالنسبة الى السيدة ايزابيللا التي لم تخف امتعاضها من السراويل. وهمست كارلا بأذنها ساخرة:
«ماذا تأملين في تحقيقه، يا آنسة؟».
«لا افهم ماذا تعنين بذلك».
«نعم تعرفين وتفهمين، يا آنسة. انك تفكرين بأنّ البقاء هنا امر طيب للغاية، وتتمنين ان تقرر الطفلة عدم مغادرة هذا المكان.

وتفكرين ايضاً بأنّ اخي يتعاطف مع اصحاب القضايا الخاسرة، وبأنه لا يحتاج الاّ الى القليل من... الاقناع كي يعلن عن استعداده لتولي رعايتك انت ايضاً».
شهقت ميراندا وقالت لها بحدة:
«هذه كلمات وتلميحات حقيرة ومثيرة للتقزز!».
«حقاً؟ وهذا الفستان الذي ترتدينه. اليس مصمماً كي يسترعي انتباهه ويجذب اهتمامه؟ ومن يدري، فقد تنجحين لأن اخي خوان ليس صعب المنال!».
ارتاحت ميراندا كثيراً عندما ظهرت السيدة ايزابيللا واثنت بسرعة وحرارة على التبدّل الواضح في مظهرها، قائلة بدون مواربة:
«كم تبدين جذابة عندما ترتدين فستاناً يا آنسة. لا بد لي من الاعتراف باني افضل ان تبدو المرأة كامرأة».
وقال خوان الذي انضم اليهن في تلك اللحظة:
«اوه، ولكن الآنسة لورد تبدو ذات انوثة فائقة عندما ترتدي السراويل. ومع ذلك فاني اوافقك الراي، يا امي. انها تبدو الآن جميلة وجذابة الى ابعد حد».
احمرّت وجنتا ميراندا نتيجة للاطراء المزدوج الذي سمعته، والانتصار الذي حققته على كارلا في اللعبة ذاتها التي اختارتها تلك الفتاة لتحطيمها.
انتبهت ميراندا الى انه لم يبق على موعد العشاء سوى بضع دقائق. ارتدت فستانها الحريري الأسود وسرّحت شعرها الناعم، الذي قررت ان تتركه تلك الليلة متدلياً على كتفيها، ثم نزلت الى قاعة الطعام الرئيسية. وقفت مترددة في المدخل العريض وهي تنتظر ان يلاحظ وجودها احد ويدعوها الى الدخول. كانت السيدة ايزابيللا تتحدث مع رجل طويل القامة يرتدي ثوب الكهنة، فظنت ميراندا انه الأب استيبان. ولكنه عندما استدار للتحدث مع كارلا، اكتشفت انه اصغر بكثير من رئيس الدير الهرم. وفجأة شاهدها

خوان فاسرع نحوها وهو يقول باعجاب واضح:
«آنسة لورد! انك... انك تبدين بمنتهى الجمال!».
ابتسمت ميراندا وقالت مازحة:
«ارجوك، لا تبالغ! قد اصاب بجنون العظمة!».
«لا، اني اعني ما اقول. انك فعلاً... رائعة!».
اقتربت منها السيدة ايزابيلا لتعرفها على الكاهن الشاب، قائلة:
«آنسة لورد، اعرفك بالأب دومنكو الذي يعتني كثيراً بكنيسة الوادي. انه يسكن الدير مع الأب استيبان».
ابتسم الكاهن الوسيم بحرارة قائلاً بمزيج من الاستغراب والمرح:
«اذن انت خالة الطفلة الصغيرة، يا آنسة؟ مستحيل! ربما انت شقيقتها!».
ردّت ميراندا على كلمات الاطراء بابتسامة جميلة، وهي تشعر باستمرار بوجود ذلك الشاب الوسيم... رافاييل وتتمنى سماع كلمة اطراء واحدة منه. لماذا لا يكون كشقيقه، او حتى كأب دومنكو؟ لماذا لا يحييها بمثل تلك الطريقة المتوددة كبقية أفراد العائلة؟ ولكن ذلك ليس صحيحاً بصورة تامة، فكارلا لا تزال واقفة قرب المدفأة تنظر اليها بشيء من الحقد والاشمئزاز.
دهشت ميراندا عندما جلس رافاييل، وليس خوان كما كانت تتوقع، في المكان المخصص لرأس العائلة. وجلست الشقيقتان التوأمان الى جانبيه، فيما جلست هي قرب والدته والأب دومنكو في الجانب الآخر... قبالة خوان.
استغربت ميراندا ذلك الترتيب المتعلق بجلوس رافاييل واحتارت في امر تفسيره. في السابق، لم يكن الموضوع صعب التصديق. فالابن الأكبر يرث القصر والأرض عن والده، وشقيقه الأصغر يكرس حياته لمساعدة المرضى والتعساء. ولكن، هل رافاييل هو الابن الأصغر؟ انه بالتأكيد يبدو أصغر سناً من خوان، ولكن ذلك قد

يكون بسبب ضخامة جثة خوان وترهله بعض الشيء. اما ان لم يكن الشقيق الأصغر، فلماذا اذن يتولّى خوان ادارة الممتلكات؟
وزعت القهوة على الجميع الذين راحوا يتبادلون شتى انواع الحديث، فيما كانت الموسيقى الهادئة والناعمة تنساب من مكبرات صوت صغيرة الحجم موزعة بذكاء في ارجاء القاعة. وتولت كونستانسيا شرح بعض الأمور المتعلقة بالاشياء الاثرية والتاريخية التي كانت ميراندا تبدي اعجابها بها. وخلال حديث عام عن الأديان والطوائف المختلفة، ابدى الأب دومنكو اعجابه بكلام ميراندا المتزن قائلاً:
«هذه نظرية مثيرة للاهتمام، يا آنسة لورد، وسيسعدني جداً ان ابحثها معك بالتفصيل في وقت لاحق. واود ان اعترف لك بصراحة بأنني لم اكن اتوقع من صبية بعمرك مثل هذا التفهم والاستيعاب لموضوعات جدية ومعقدة كهذه».
وعلق رافاييل على هذا الكلام بقوله:
«الآنسة لورد شابة يحلو الحديث معها، يا حضرة الاسقف».
لم تنتبه ميراندا الى اقترابه منها للمشاركة في الحديث، ولكنها احتارت في امر لهجته. هل قال جملته بصدق وامانة ام بخبث وسخرية؟ وسمعت الكاهن يسأله:
«هل توافق على هذا الرأي، يا رافاييل؟ انها نظرية لا بأس بها على الاطلاق، اليس كذلك؟ انها فكرة تثير اهتمام المجلس الكنسي بصورة مستمرة».
ردّ عليه رافاييل ببرودة قائلاً:
«ولكنها نظرية لا يمكنك ان توافق عليها، يا حضرة الاسقف!».
«اليس ممكناً ان يتمتع الرياضي بالمشاركة والمنافسة، حتى لو لم يصل الى المرتبة الاولى؟».
«أهذا ما تفعله انت، يا سيدي؟».
ابتسم الأب دومنكو بمحبة وتحدٍّ، قائلاً بدون انفعال:

«انت تعرفني جيداً، يا رافاييل. ولكني اشعر من لهجتك انت ايضاً، يا بني، انّ لديك اكثر من مجرد اهتمام عادي بهذا الموضوع».
اختارت السيدة ايزابيلا تلك اللحظة بالذات ان تدعو ولديها والأب دومنكو لشرب المزيد من القهوة. اعتذر الكاهن وخوان وتوجها الى الجانب الآخر من القاعة، فيما ظلّ رافاييل واقفاً قرب ميراندا. ومع انها كانت تتمنى الانفراد به اكثر من اي شيء آخر، فقد ارتبكت قليلا ووجدت نفسها تسأله بغباء:
«أليس من الضروري ان تنضم انت ايضاً الى والدتك؟».
«انا لست طالباً صغيراً، يا آنسة. انني قادر تماماً على اتخاذ قراراتي بنفسي».
احمّر وجهها خجلاً وقالت:
«اوه حسناً. انا آسفة لأني سمحت لنفسي بتقديم اقتراح بسيط!».
تأملها ملياً بعينين جميلتين فاحصتين وقال:
«يبدو لي، يا آنسة، ان لديك موهبة لاجتذاب شقيقي والأب دومنكو على حدّ سواء. ومن شأن ذلك ان يعوضك عن قلة اهتمامي بك».
عكست عيناها على الفور الأذية التي يتعمد الحاقها بها، وسألته بانقباض واضح:
«لماذا تقول مثل هذه الأشياء؟ لماذا لا تذهب وتنضم الى والدتك، بما اني لا اجذبك على الاطلاق؟».
لم يردّ رافاييل على الفور، ولكنه تنهد بعد لحظات وقال لها:
«حسناً، حسناً. انا آسف».
وصمت برهة ثم سألها:
«اخبريني، كيف تسير الامور مع لوسي؟».
«لم احقق اي تقدّم حتى الآن».
«ماذا؟».

«اعتقد انني لن اتمكن ابداً من انجاز اي شيء معها. ليس هنا، على الأقل».
«ولكن لماذا؟».
هزّت ميراندا كتفيها وقالت له بأسى:
«المشكلة هي ان شقيقك يرفض التعاون وتسهيل الأمور».
تنهد رافاييل بقوة وعصبية وقال:
«اعرف، اعرف. هل تحدثت مع الطفلة؟».
«على انفراد؟».
رفع رافاييل يده الى شعره الكث وبدا انه يفكر بحل ما. الا ان انتباه ميراندا تحوّل الى عضلات كتفيه وصدره، وشعرت برغبة قوية في وضع يدها تحت القميص الحريري.
«... بعيداً عن القصر».
استفاقت ميراندا من احلام اليقظة لتشاهد رافاييل ينظر اليها باستغراب ويسألها بشيء من الحدّة:
«هل سمعت ما قلته لك؟».
هزّت رأسها اعتذاراً فكرر جملته بهدوء:
«كنت اقول لك انه سيكون من الأفضل ان تتمكني من التحدث مع لوسي عندما لا يكون اخي موجوداً. ويجب الاّ يتم ذلك هنا، بل بعيداً عن القصر».
هزّت برأسها وسألته بلهجة جافة تعكس قلقها وانزعاجها:
«وكيف تقترح ان يتم ذلك؟ فشقيقك لن يسمح لي ابداً بأخذها الى اي مكان... ليس وحدنا في أي حال».
«صحيح، لا اظنه فاعلاً ذلك ما لم... ما لم آخذكما انا الى مكان ما».
شعرت ميراندا بانه متردّد في عرضه هذا، وبالتالي فانها لن تقبل مساعدة شخص يعتبر وجودها امراً مستهجناً وغير محبب. رفضت عرضه بحزم وتهذيب، قائلة:

«لا داع لذلك. سأفكر بطريقة اخرى».

«ما هي المشكلة الآن؟».

«حسناً، سأجيبك بصراحة! انت لا تريد حقاً ان تأخذني الى اي مكان. أليس ذلك صحيحاً؟».

«اني على اتم الاستعداد للقيام بهذه المهمة».

ردت عليه بغضب واضح:

«يا للكرم! يا للشهامة! شكراً لك يا سيد، ولكني لست بحاجة لمساعدتك!».

«رافاييل!».

كان ذلك صوت السيدة ايزابيلا التي اقتربت منهما بدون ان يشعرا بها.

«رافاييل، ماذا يجري هنا؟».

«آسف، يا امي. هل كنتِ تريدين التحدّث معي؟».

أصرّت السيدة المسنة على سؤالها وهي تنظر ببرودة الى ميراندا:

«سألتك عما يجري هنا. يبدو انكما كنتما... تتجادلان!».

زرر سترته السوداء الرسمية ووضع يديه وراء ظهره، ثم قال لوالدته:

«انك مخطئة، يا امي. اننا لم نكن نتجادل. العكس هوَ الصحيح. كنا نبحث احتمال اخذي الآنسة لورد وابنة اختها الى البحيرة».

حبست ميراندا انفاسها ولكن السيدة ايزابيلا لم تلاحظ دهشتها، اذ انها هي نفسها اصيبت بشيء من الذهول. وسألت ابنها بتشكك:

«انت، يا رافاييل؟».

«نعم، يا امي. وانا متأكد من انّ خوان سيسر لتحمل بعض مسؤولياته بضع ساعات. الا تعتقدين ذلك؟».

تدخّلت ميراندا على الفور قائلة بأنفة:

«لا اعتقد ان...».

قاطعها رافاييل بسرعة وكأنه يكمل جملتها عنها:

«لا تعتقد الآنسة لورد ان اخي سيعارض ذلك».

لم تتمكن ميراندا من معارضته امام والدته، فصمتت. الاّ ان مجرّد احتمال تمضيتها صباحاً بكامله مع رافاييل قرب احدى البحيرات الجبلية، كان مثيراً بحدّ ذاته وموازياً من حيث الاهمية لفكرة انفرادها بابنة اختها للمرة الاولى منذ وصولها. وعندما نقلت الأم فكرة رافاييل الى خوان، سارع الشقيق الى اقتراح ذهاب الجميع الى البحيرة. وقال:

«سنقوم جميعاً بنزهة طويلة ونتناول طعام الغداء هناك».

«كلا!».

قالها رافاييل بهدوء، ولكن بنبرة جادة لا تقبل الاعتراض.

«ولكن لماذا؟ اليست فكرتي جيدة؟».

«اليست هناك امور عدّة في المزرعة تستدعي وجودك واهتمامك، يا اخي؟ انا لا انكر عليك تعلقك بالطفلة، ولكن الا تظن انك تهمل شؤون الممتلكات؟».

احمرّ وجه خوان وردّ على اخيه بشيء من الاحتقار، قائلاً:

«انت لست في وضع يخولك حق التحدّث في هذه الامور، يا رافاييل».

«لن اجادلك، يا خوان. انا والآنسة لورد سنأخذ الطفلة بمفردنا».

«متى؟».

«لا ادري. ليس غداً في اي حال. ربما بعد غد، ان شاء الله».

على اثر ذلك، غادر رافاييل والأب دومنكو القصر معاً وودعتهما الى الباب الخارجي السيدة ايزابيلا وابنتها كونستانسيا. وما ان همّت ميراندا ايضاً بمغادرة القاعة الى غرفتها، حتى اقتربت منها كارلا وقالت لها بخبث واضح:

«هكذا اذن، يا آنسة. يبدو انك قررت تغيير اسلوبك، اليس كذلك؟».

«افضل الآ ابحث معك هذا الموضوع، يا آنسة. عن اذنك!».

«اوه، ولكني اصر على ذلك. اني اجد الموضوع مسلياً للغاية. ولكنك تضيعين وقتك مع رافاييل، يا آنسة، فهو غير قادر على مساعدتك».

«اعتقد انني سأذهب الى النوم، يا آنسة».

امسكتها كارلا من ذراعها وقالت لها ببرودة اعصاب مذهلة:

«تمهلي، يا آنسة، واستمعي اذا شئت الى هذه النصيحة الثمينة. ركزي اهتمامك ومحاولاتك على خوان، ولكن دعي رافاييل وحده. سحرك القوي وجمالك الفتان لا يجذبانه ابداً!».

ثم ابتسمت بلؤم وخسة وهي تنهي حديثها بالقول:

«ما من امرأة في العالم، مهما كانت، تتمكن من جذبه اليها وايقاعه في شباكها!».

٦- سوف أطلب الغفران

نامت ميراندا تلك الليلة، مع انها لم تتوقع ذلك اطلاقاً. ضايقتها جداً كلمات كارلا، ولكن النعاس كان أقوى من الانقباض. ولم تستيقظ صباح اليوم التالي الا على صوت لوسي وهي تقفز وتعدو في الحديقة تحت شرفة غرفتها. فتحت عينيها بكسل واضح لتشاهد فطورها على الطاولة الجانبية. من المؤكد ان الخادمة ايناز أحضرته لها قبل قليل. ولكنها لم تزعجها، على ما يبدو، بناء على تعليمات من السيدة ايزابيلا.

شربت القهوة على عجل وخرجت الى الشرفة، بعد ان ارتدت عباءة حريرية بيضاء. كانت لوسي تلعب مع احدى الشقيقتين. وترددت ميراندا لحظة قبل القاء التحية، ولكنها شعرت بالارتياح

عندما بان لها وجه كونستانسيا المحبب.

«ما بك، أيتها الكسولة؟ الا تعرفين ان الساعة تجاوزت العاشرة؟».

ابتسمت ميراندا لسماعها تلك الكلمات وقالت:

«أعلم أن الوقت متأخر. امنحاني بضع لحظات كي ارتدي ثيابي وانضم اليكما».

ثم حولت انتباهها الى الطفلة التي كانت تصغي اليهما بدون تعليق، وسألتها بمحبة:

«مرحباً، يا لوسي. كيف حالك هذا الصباح؟».

هزت لوسي كتفيها بدون ان تجيب، فقالت لها كونستانسيا:

«لوسي، حبيبتي! قولي صباح الخير للآنسة!».

امتعضت ميراندا بعض الشيء عندما رفعت لوسي نظرها اليها وقالت:

«صباح الخير يا آنسة».

احست ميراندا بعقم محاولاتها لاقناع الطفلة باستبدال تلك الكلمة الجافة بكلمة أرق وأعذب... خالتي، أو بالاسم الأول فقط. حتى كونستانسيا اللطيفة والطيبة... تصر على استخدام الرسميات!

عادت الى الغرفة ثم اخذت حماماً بارداً وتناولت فطورها. وبعد ذلك، ارتدت ثيابها المعتادة وغادرت الغرفة. وما ان وصلت الى اسفل الدرج، حتى ظهر أمامها خوان الذي قال لها على الفور:

«آه، آنسة لوردا! هل تسمحين بدقيقة من وقتك؟».

هزت برأسها بالموافقة فدعاها لدخول مكتبه. تطلعت حولها باهتمام لأنها لم تكن قد شاهدت تلك الغرفة الفسيحة من قبل. اشار بيده الى أحد المقاعد الوثيرة وقال لها، فيما كان ينظر الى مجموعة من الأوراق أمامه:

«أريد أن اطلب منك... خدمة، يا آنسة. أمامي الآن عدد كبير

من الرسائل التي لم اتمكن بعد من الاجابة عليها، مع انني تأخرت كثيراً في ذلك. وقد أبلغني الأب استيبان انك تعملين كسكرتيرة في لندن، أليس كذلك؟».

استغربت ميراندا سؤاله ولكنها اجابته بهدوء:

«نعم، يا سيد أنا اعمل كسكرتيرة لأحد رجال الاعمال الذين يتعاطون الشؤون المالية والمصرفية».

«عظيم! اذن، هل بامكانك مساعدتي؟».

«كيف؟».

«كما ترين، لدي مجموعة كبيرة من الاجابات التي ينبغي اعدادها».

«وهل تريدني ان اكتبها لك، يا سيد؟».

«أعني... أتمنى أن تطبعيها لي، يا آنسة. ارجوك! هل أطلب منك الكثير؟».

«لا، طبعاً لا».

لقد قبلت ضيافته وعليها رد الجميل. ولكنه يعلم ان حجزها في مكتبه يحرمها من أي فرصة قد تجدها للتحدث مع لوسي او الانفراد بها.

«متى تريدني ان أبدأ؟».

«أوه... حسناً... الآن، يا آنسة!».

«بما ان النتيجة واحدة، يا سيد، فاني أفضل العمل في المساء. ليس لديّ أي شيء أقوم به في المساء، ولذلك...».

توترت اعصابه قليلا وهو يقاطعها قائلا:

«أنا لا أوافقك على هذا الرأي يا آنسة».

«ولما لا؟».

لاحظ خوان انها مستعدة لمجابهته اذا استدعى الأمر، فقرر استخدام أسلوب مختلف. قال لها مبتسماً:

«لأن ذلك ليس مناسباً، يا آنسة. هيا، هيا، فلسنا بحاجة الى

وقت طويل».

«وهل الاجابات معدّة سلفاً؟».

«سنستخدم الاختزال، أليس ذلك افضل؟».

أخفت ميراندا امتعاضها، فالنهار، لا يزال في بدايته. ستنهي عملها اليوم كي تتفرغ غداً للقاء لوسي... ورافاييل!

ولكن اليوم التالي حل منذ بدايته أمطاراً موسمية غزيرة. وكان جو القصر متوتراً. حضر فالديز مراقب العمال لاجراء مباحثات عاجلة مع خوان، ولكن احداً لم يذكر اسم رافاييل. من الواضح انه لن يأتي في هذا الجو الماطر والعاصف. ولكن، أين هو الآن يا ترى؟ هل يجلس آمناً مرتاحاً في بيته الحجري الصغير؟ أم يساعد القرويين والعمال على انقاذ اكواخهم وحاجياتهم؟

أمضت ميراندا معظم ذلك الصباح في التأمل والتحليل، وبخاصة انها لم تحرز حتى الآن أي تقدم مع لوسي مع انه مضى على وجودها هنا اكثر من اسبوع. ولكن ماذا عساها ان تفعل؟ ماذا بامكانها ان تفعل؟ هل تأخذ الطفلة بالقوة، اذا دعت الحاجة الى ذلك؟ لا يمكنها التنكر لحقيقة جلية، وهي ان الطفلة سعيدة جداً مع خوان. ولكن، كم ستدوم سعادتها اذا بدأ خوان يمل منها؟ اذا تزوج ورزق اولاداً؟

خفّ المطر بعد الظهر وتوقف تماماً في المساء. ومع توقفه وزوال الخوف من مصائبه، نزلت ميراندا الى قاعة الجلوس وهي تأمل في ان يكون اليوم التالي صاحياً كي تتمكن من لقاء ابنة اختها. وما هي الا دقائق معدودة، حتى وصل رافاييل وقد بدا عليه التعب والارهاق. اقترب منها وقال:

«لن أبقى طويلاً، يا آنسة. لم احضر الا لمقابلتك، ولكي اسألك عما اذا كان الغد يناسبك».

حبست ميراندا انفاسها لحظة ثم سألته بلهفة:

«للذهاب... الى البحيرة... مع لوسي؟».

«طبعاً».

«عظيم. شكراً».

هز رافاييل رأسه وكان على وشك العودة عندما قالت له:

«انك مبتل للغاية. ماذا كنت تفعل؟».

«جرفت السيول احد عمال اخي الى النهر وتمكنا، لحسن الحظ، من رمي حبل له وانقاذه. والمؤسف حقاً ان احد منقذيه لم يكن له حظ مماثل».

سألته ميراندا بلهجة حزينة:

«هل تعني ان احداً غرق هذا اليوم؟».

«ألم يخبرك خوان؟ لا، ربما لا. الا ان هذه هي الطريقة التي تجري بها الأمور هنا. والآن... الآن يجب ان أذهب وأجفف نفسي».

«أنت بحاجة الى حمام ساخن. لماذا لا تستحم هنا؟ من المؤكد ان لدى خوان بعض الملابس التي يمكنك...».

توقفت عن اتمام جملتها بعد ان انتبهت الى السهولة القصوى التي وجدتها في استخدام الاسم الأول لشقيقه، وردّ فعله المحتمل على ذلك. الا انه كان يصعد الى سيارته وهو يقول لها:

«يوجد لدي ماء ساخن في بيتي، يا آنسة».

عادت ميراندا الى القاعة الكبيرة فالتقت كونستانسيا، التي سألتها باستغراب:

«هل كان ذلك رافاييل، يا آنسة؟».

«نعم. لم يتوقف اكثر من دقائق معدودة. اتى... لمجرد ابلاغي بأنه سيأخذني ولوسي غداً الى البحيرة».

بدا التململ واضحاً في صوت الشقيقة عندما سألت للمرة الثانية:

«هل كان ذلك كل شيء، يا آنسة؟».

لم تعرف ميراندا ما اذا كان عليها ابلاغ الفتاة الأخرى عن حادثة الغرق ام لا. هزت برأسها وقالت:

«نعم... نعم. كان... كان مبتلا للغاية، واعتقد انه ذهب الى بيته ليجفف...».

قاطعتها كونستانسيا قائلة:

«هذا هو بيت اخي، يا آنسة».

وأثناء العشاء اخبرت كونستانسيا بقية أفراد العائلة ان رافاييل حضر في المساء وقابل ميراندا ثم عاد على الفور. وبدا الاستغراب على وجوه الجميع، وبخاصة الوالدة، لأنه لم يعلن عن حضوره. وشعرت ميراندا بأن افراد العائلة يعتبرونها مسؤولة عن ذلك. وسرّها جداً ان ينتهي العشاء وتذهب الى غرفتها. القصر جميل جداً ولكنها... ليست سعيدة فيه.

استيقظت ميراندا باكراً صباح اليوم التالي، وكانت الشمس ساطعة والطقس رائعاً. ارتدت ثيابها ونزلت الى المطبخ كي تعد لنفسها فطوراً مبكراً. كانت جيزابيل تعمل منذ بعض الوقت في اعداد ما يلزم اعداده واعطاء التعليمات لبقية الخدم.

حدّقت بها جيزابيل استغراباً وسألتها عمّا تريد. فردّت عليها ميراندا بأنها ترغب بقليل من القهوة. نظرت اليها السيدة القصيرة ذات الشخصية القوية بمزيد من الاستغراب وسألتها:

«وهل تريدين القهوة... هنا، يا آنسة؟».

«هنا، أو في أي مكان آخر، ان لم يكن لديك مانع».

تطلعت جيزابيل الى الصبي المذهول الذي كان يساعدها في المطبخ وأعطته امراً، ثم استدارت نحو ميراندا وقالت لها بتهذيب وهدوء:

«تفضلي! هل ستذهبين اليوم مع السيد رافاييل الى البحيرة، يا آنسة؟».

«نعم! ولكن... كيف عرفت ذلك؟ كان يفترض بنا أن نذهب أمس!».

ابتسمت جيزابيل كاشفة عما تبقى من اسنانها وقالت:

«سمعتك تتحدثين مع السيد رافاييل مساء امس، يا آنسة. انه يعجبك، أليس كذلك؟».

دهشت ميراندا لذلك السؤال المفاجىء ووضعت مرفقيها على الطاولة، ثم اخفت خديها بين يديها لاخفاء احمرارهما وقالت:

«السيد رافاييل طيّب جداً، وعرض ان يأخذني و...».

«والصبية! نعم. نعم، أعرف ذلك يا آنسة. هل كل شيء على ما يرام؟».

قبلت ميراندا القهوة بامتنان وقالت:

«نعم يا جيزابيل. شكراً لك».

تلهت مدبرة المنزل بعملها لبضع دقائق، فشعرت ميراندا بشيء من الارتياح. فهي، على الرغم من اعجابها بالسيدة، المسنة، لكنها لم تكن راغبة في الاسترسال معها بحديث يتناول أفراد العائلة المضيفة. وقبل ان تعود جيزابيل الى الثرثرة، فتح الباب فجأة ليدخل منه رافاييل. رفع حاجبيه استغراباً لرؤيته ميراندا في المطبخ وحيّاها بلهجة جدية:

«اسعدت صباحاً يا آنسة».

ثم ابتسم لجيزابيل وقال لها بالاسبانية:

«كيف حالك، ايتها العزيزة؟».

تمنت ميراندا من صميم قلبها معرفة فحوى الأحاديث التي تبادلاها، وبخاصة لأنها لاحظت من حركات جيزابيل انها هي موضوع الحديث. وانتبهت ايضا الى رافاييل كان يتجنب الرد على بعض الاسئلة وهو يهز رأسه باسماً. وبعد دقائق معدودة، صب لنفسه فنجاناً من القهوة واعتذر لجيزابيل ثم اقترب من ميراندا وسألها:

«وماذا يقولون هنا، يا آنسة؟ هل صحيح انك لم تتمكني من النوم جيداً؟».

«استيقظت باكراً، وكنت أظن اننا قد نذهب الى البحيرة في وقت

مبكر».

«أوه!».

لاحظت ميراندا انه يسعل بقوة، فسألته بهدوء:

«كيف حالك هذا الصباح يا سيد؟».

شرب جرعة من القهوة ثم قطب حاجبيه بسبب السعال شبه المتواصل، وقال:

«يبدو انني مصاب بالبرد والزكام، ولكن الأمر ليس خطيراً».

«لا استغرب ذلك على الاطلاق، فقد أبقيت عليك ثيابك المبللة فترة طويلة!».

تأمل رافاييل وجهها المتوتر بضع لحظات وقال:

«نعم، نعم، قد تكونين على حق يا آنسة. الا انه لا يمكن للانسان ان يترك رجلاً يغرق لمجرد انه يريد تجفيف نفسه وثيابه!».

«ولكنك كنت لا تزال مرتدياً ثيابك المبتلة عندما أتيت الى هنا البارحة».

استدار رافاييل نحوها وقال لها بهدوء ملحوظ:

«كان لا بد لأحد من أن يبلغ زوجة الغريق بما حدث، وبيتها ليس بعيداً من هنا. أوه، جيزابيل، هل قطع الخبز الفرنسي هذه جاهزة؟».

اعدت جيزابيل المائدة بسرعة وقالت له، فيما كانت تدفعه بقوة واصرار الى الكرسي:

«سوف تتناول الفطور انت والآنسة، أليس كذلك؟».

«انك قطعة حلوى كبيرة، يا جيزابيل! شكراً».

لم تستمتع ميراندا بفطورها وبوجودها قربه، وذلك بسبب ما حدث سابقاً. . . ولأن جيزابيل كانت تروح وتجيء خلفهما كحارس أمين. وعندما انتهيا من تناول طعامهما، شكر رافاييل السيدة العجوز ثم سأل ميراندا:

«هل انت مستعدة، يا آنسة؟».

«طبعاً!».

«حسناً. سنمر على الصغيرة في طريقنا».

«ولكن. . . ولكن يجب ان اترك خبراً».

«سوف تتولى جيزابيل ابلاغ امي بالأمر. تعالي! فهذه هي افضل ساعات النهار».

ودّعتهما جيزابيل وكانت تبدو على وجهها ملامح الارتياح. هل لذلك علاقة بما قالته كارلا من أنّ رافاييل غير مهتم بالنساء؟ ولكن ذلك لا يمكن ان يكون صحيحاً! انه ليس من ذلك النوع من الرجال، وهي مستعدة للمراهنة على ذلك بحياتها. اضافة لذلك، فقد شعرت احياناً. . . واحياناً فقط بأنه يشعر بوجودها. . .

وقررت فجأة طرد تلك الأفكار من رأسها. فهي ليست هنا لتحليل علاقتها الوهمية مع رافاييل، بل لتمضي ساعات عدة مع لوسي وتحاول بالتالي اختراق الأسطار، فسألت رافاييل بلهجة صادقة:

«هل تلفت محاصيل هذا العام؟».

«تلف البعض وسلم البعض الآخر. انها. . . كما يقولون. . . ارادة الله عز وجل. هؤلاء الناس سعداء لأن حياتهم سلمت. الا توافقين معي على أنّ ذلك هو الأمر المهم، يا آنسة؟».

نظرت اليه لبضع لحظات ثم ابعدت وجهها عنه وهي تقول:

«اعتقد. . . اعتقد ذلك».

«انت لا توافقين؟ طبعاً لا، فانت من مجتمع مادي يقاس فيه الانسان بما يملك».

«هذا ليس صحيحاً تماماً. . .».

«كلا؟ هذا ما يواجهه العالم بأسره اليوم، يا آنسة. انا لا ادين مجتمعك أكثر من مجتمعي. وبالتأكيد فانّ نقاطاً ايجابية توجد في اي من مجتمعات العالم. انا أؤمن بان حياة الانسان. . . او بالاحرى قيمتها. . . هي الشيء الهام. ولكن اولئك الاطفال الذين يولدون

ثم يموتون...».

«بسبب الاوضاع المعيشية...».

«انها اسوأ بكثير في اماكن اخرى، يا آنسة. فبلادي على الاقل لا تمزقها حروب اهلية او خارجية. كما يمكن للانسان هنا ان يتأكد... الى حدّ ما على الأقل... من انه سيعيش حتى منتصف عمره».

اثارت كلماته اعجاب ميراندا، فسألته بهدوء:

«الهذا اخترت ان تكون طبيباً... وليس اقطاعياً، او على الاقل سيد قصر وصاحب ممتلكات؟».

قست ملامحه فجأة وقال لها:

«لم نكن نتحدث عني، يا آنسة، ربما كان عليك ان تشغلي نفسك بكيفية معالجة امر الطفلة. وهنا لا بد من تحذيرك من أنّ اخي ليس بالخصم الضعيف».

احمرّت وجنتاها وهي تقول له:

«اكتشفت ذلك بنفسي، يا سيد».

«ماذا تعنين؟».

«لا اهمية لذلك».

«ارجوك... اريد ان اعرف».

كان رافاييل مقنعاً للغاية وشعرت ميراندا بالدماء تتجمد في عروقها عندما تخيلته يطالبها بمعانقته...

«يا آنسة!»...

«اوه! طلب مني ان اساعده... أطبع له بعض الرسائل واهتم بمراسلاته!».

«متى طلب منك ذلك؟».

«قبل يومين. ولكن... ليست هناك من مشكلة. اني اردّ له الجميل. الم يسمح لي بالبقاء...».

قاطعها رافاييل بعصبية بالغة قائلاً:

«لن تقومي بعد الآن، يا آنسة، بأي عمل من هذا القبيل لأخي.

وانا سأتأكد من ذلك بنفسي».

لم تعرف ميراندا بماذا تجيب، فاكتفت بكلمة شكراً قالتها وكأنها تمتمة. وفي اللحظة التالية، كانت السيارة تقف امام مدخل الدير. خرجت لوسي بسرعة لتعرف من اتى. وما ان شاهدت ميراندا ورافاييل، حتى غابت ابتسامتها العريضة، وجمدت في مكانها. نزلت ميراندا من السيارة واقتربت منها باسمة وهي تقول:

«مرحباً، يا لوسي. جئت والسيد... والسيد رافاييل... كي نأخذك في نزهة جميلة».

نظرت الطفلة بامتعاض الى السيارة التي تغطيها الوحول وقالت:

«لا اريد الذهاب بهذه السيارة القديمة المتسخة! سيأتي الخال خوان لأخذي بسيارته الجديدة النظيفة».

ردّ عليها رافاييل بهدوء متجاهلاً قحتها:

«لا، انه لن يأتي يا لوسي. اين الاب استيبان؟».

«هنا، يا عزيزي. تفضلا وشاركاني كوباً من اللبن الطازج».

«لبن ماعز؟ عظيم، سندخل لبضع دقائق! فما رأيك يا آنسة؟».

تحدث الرجلان معظم الوقت بالاسبانية. ولكن الأب استيبان وعد ميراندا مازحاً بانه سيتمكن من محادثتها بلغتها لأن لديه معلمة صغيرة تساعده باستمرار. وعندما حان وقت الرحيل، التصقت لوسي بقوة بالكاهن العجوز وقالت باكية:

«أريد البقاء معك. لا تطلب مني الذهاب معهما. بعد قليل، سيأتي الخال خوان».

«ليس اليوم، يا صغيرتي، ليس اليوم! تعالي. فخالتك هنا لمشاهدتك وتمضية بضع ساعات معك».

«انها ليست خالتي! قال لي الخال خوان انني الآن فتاة مكسيكية... وهي بريطانية!».

نظر رافاييل بسرعة الى ميراندا فشعرت بانه متعاطف معها. وفرحت عندما سمعته يقول للفتاة بهدوء:

«يجب على الخال خوان ألاّ يقول لك كلاماً كهذا، يا لوسي. انت بريطانية، والاّ فكيف تتحدثين بهذه اللغة؟ ثم... انك تجرحين شعور خالتك الى درجة كبيرة عندما تستخدمين معها مثل هذه الكلمات القاسية. يجب ان تتذكري انها تعرفك منذ كنت طفلة صغيرة، كما تعرف والديك. امك شقيقتها، يا لوسي. كيف تظنين انها تشعر عندما تسمعك تتنكرين لأهلك ولعائلتك؟ هل تعتقدين أنّ الخال خوان يتنكر لعائلته؟ لا، قطعاً لا! وانا كذلك!».

«ولكن الخال خوان أبلغني بأنها ستعود بي الى بريطانيا، وان تلك البلاد باردة جداً... والشمس لا تشرق ابداً».

تململ رافاييل بعض الشيء وقال لها:

«لم يذهب الخال خوان مرة واحدة في حياته الى بريطانيا، وبالتالي لا يعرف عنها الاّ النذر القليل».

«وانت، هل ذهبت قبلاً الى بريطانيا؟».

«طبعاً».

قالها رافاييل بهدوء واقتناع شديدين، متجاهلاً استغراب ميراندا ودهشتها. وعادت الطفلة تسأله مجدداً:

«وهل تشرق الشمس هناك؟».

«طبعاً يا حبيبتي. وهل يمكن للناس هناك ان يعيشوا بدون شمس؟».

«وما هي طبيعتها؟».

«انها بلاد... صغيرة، ولكنها خضراء. انها تختلف عن هنا، ولكن شعبها ودود جداً وطيب جداً».

«ولكن، ماذا سيحدث ان لم تعجبني؟».

وضع يده برفق على كتفها وقال لها بحنان ظاهر:

«لم يتقرر شيء بعد، يا لوسيا. يجب ان نواجه الظروف والتطورات كل في حينه. تعالي معنا لتمضية ساعات الصباح معاً. ومن يدري، فقد تجدين خالتك السائحة طيبة جداً... عكس ما

تتصورين».

نظرت لوسي بحذر نحو ميراندا ثم قالت لرافاييل:

«حسناً، حسناً. سأذهب معكما، ولكن... اريد الجلوس في المقعد الأمامي... معك».

«سنجلس جميعنا في المقعد الامامي، يا صغيرتي».

وبعد ان ودّع رافاييل الأب استيبان وسار نحو السيارة، سألته ميراندا بصوت منخفض:

«لم اكن اعرف انك زرت بريطانيا من قبل، يا سيدي».

«لم ازرها قط، يا آنسة».

«ولكن...».

«كانت كذبة بيضاء ذات هدف نبيل. سوف اطلب الغفران من ربي، اعدك بذلك».

«وهل...؟».

انحنى رافاييل ليرفع لوسي الى السيارة، ثم قال لميراندا بهدوء:

«انها مسألة بيني وبين ضميري، يا آنسة. هيا بنا».

٧- أنا آسف يا آنسة!

«الى اين نحن ذاهبون؟».

نظر رافاييل الى الطفلة الجالسة قربه وقال لها بهدوء:

«اننا ذاهبون الى بحيرة، يا لوسيا. انت تعرفين ما هي البحيرة، أليس كذلك؟».

تطلّعت اليه لوسي وقالت بعنفوان:

«طبعاً. ولكن، اين هي تلك البحيرة؟ وكيف يمكن ان تكون هنالك بحيرات في الجبال؟».

تدخّلت ميراندا كاحدى معلّمات الجغرافيا الطبيعية، قائلة:

«كثيراً ما تكون هناك بحيرات في المناطق الجبلية، يا لوسي. وتتكوّن هذه البحيرات من جراء تجمّع المياه، كتلك التي هبطت

امس، في احواض طبيعية مرتفعة».

هز رافاييل رأسه وقال مصححاً معلوماتها:

«البحيرة التي نقصدها ليست من هذا النوع، يا آنسة. ولكنكما ستعرفان ما اعنيه... قريباً جداً».

وصلت السيارة القوية، المصممة خصيصاً للطرقات الجبلية والصحراوية الوعرة، الى مكان مرتفع جداً يشرف على المكان المرتقب. اوقف رافاييل محرك اللاندروفر، ونزل الثلاثة من السيارة لتأمل ذلك المنظر الطبيعي الخلاب.

«انها احدى معجزات الطبيعة، أليس كذلك؟ انظرا الى ذلك البخار الذي يتصاعد من الماء! هناك ينبوع حار يغذّي البحيرة ويبقي مياهها دائماً ساخنة».

شهقت ميراندا لشدّة اعجابها وقالت:

«انها... انها رائعة! ولكن... هل سننزل اليها؟».

«ستذهب مسافة قصيرة. هناك سهل صغير فوق البحيرة يمكننا ايقاف السيارة فيه، ثم نستخدم اقدامنا».

صرخت لوسي عندما بدأت السيارة تتجه نزولاً:

«ولكن، كيف ستتمكن من الصعود ثانية؟».

ابتسم رافاييل وقال لها مازحاً ومشجعاً:

«لا تكوني كفأرة صغيرة، يا لوسيا. انها مغامرة مثيرة... ولكنها ليست خطرة».

«انا لا احب هذا المكان على الاطلاق!».

كانت تنظر بهلع الى الجبال العالية المحيطة بهم، وقد توتّرت اعصابها وبدا عليها الانزعاج والانقباض. هل كان ذلك ما يهدف اليه رافاييل عندما اقترح هذا الموقع بالذات؟ هل كان يتصور بأنّ لوسي ستخاف هنا... ستصاب بصدمة تذكرها بجبل آخر، وواد آخر؟.

«اريد العودة الى الدير. اريد العودة الآن».

ضمّت ميراندا الطفلة اليها وقالت لها:

«لا تخافي، يا حبيبتي. رافا... السيد رافاييل يعرف تماماً ماذا يفعل. ليس هناك اي خطر او سبب للخوف».

ردت عليها الطفلة باكية:

«انا لا احب هذا المكان. انه... انه موحش للغاية!».

قال لها رافاييل بايجاز، فيما كان يركز اهتمامه على ايقاف السيارة في ذلك المسطح الصغير:

«ولكنك لست وحدك، يا لوسيا».

ثم اوقف المحرك تابع قائلاً:

«ما رأيك الآن؟ ها قد وصلنا سالمين وبدون مواجهة اي خطر! هل ستنزلين؟».

نظرت اليه لوسي بقلق وهي تحبس دموعها بصعوبة، وسألته بتردد:

«ولكن الصخور... مزعجة، والنزول صعب للغاية!».

ابتسم لها وهو يرفعها بين ذراعيه ثم قال مشجعاً:

«تعالي! سأريك كيف ننزل! يجب الا تخافي معي، يا صغيرتي!».

انزلها رافاييل بسهولة فائقة دلت على خبرته وتمرسه، على الرغم من وعورة الارض واوحالها. ثم عاد يمد يده لمساعدة ميراندا. امسكت بيده وبدأت تنزل ببطء وتأن. ولكن قدمها زلّت، ففقدت توازنها وانزلقت على المنحدر الموحل. ووجدت ميراندا نفسها مستلقية على ظهرها قرب قدميه فيما غطت الأوحال ثيابها ومعظم انحاء جسمها. لم يضحك، مع انه كان بالتأكيد على وشك ذلك ولكنه نصحها بالتروي قليلاً فيما يتعلق بالوحول المتراكمة عليها، وذلك كي تجف ويسهل نزعها.

اختار رافاييل صخرة جميلة جافة واستلقى عليها، مفسحاً المجال امام ميراندا للانفراد بابنة شقيقتها ومحاولة اختراق السد المنيع الذي ترفعه بوجهها.

زال خوف لوسي وقلقها وراحت تقفز هنا وتركض هناك فرحة جذلة. وما ان خلعت حذاءها ووضعت قدميها في مياه البحيرة، حتى صرخت بسرور:

«انها ساخنة! انها حقاً ساخنة!».

أخفت ميراندا خيبة املها التي اصيبت بها عندما ادركت ان لوسي لم تعد خائفة من الجبال، وبأن الأمل الواهي في استعادتها ذاكرتها قد تضاءل او زال. وضعت يديها الموحلتين وراء ظهرها برهة ثم تأففت بصوت مرتفع ضحكت الطفلة من جراء ذلك مما شجعها على ان تقول لها بهدوء:

«الا تتذكريني ابداً، يا لوسي؟».

نظرت لوسي بعيداً وهي تجيبها نفياً. تنهدت ميراندا وعادت تسألها:

«هل انت متأكدة؟».

«طبعاً انا متأكدة. اوه... انظري! اليست هذه فراشة جميلة! هل تعرفين ماذا تسمّى؟».

نظرت ميراندا بتململ الى الفراشة وقالت:

«لا اعرف، ربما كانت تسمى الطائر الأزرق. الا تريدين ان تتذكّري، يا لوسي؟».

«انها ليست الطائر الازرق، لأن ذلك النوع اصغر بكثير ولديه بقع زرقاء وبيضاء على الجناحين».

«بحق السماء يا لوسي! عندما اتينا الى هنا شعرت بانك تذكرت شيئاً ما... شيئاً افزعك واخافك!».

ثم توقفت فجأة وقالت لها بلهفة:

«كيف تعرفين شكل الفراشة المسماة بالطائر الازرق؟».

«لا ادري».

«اسمعي، يا لوسي! لا توجد في اميركا اللاتينية كلها فراشات من هذا النوع. انها موجودة فقط في اوروبا. الا يثبت لك ذلك اني

اقول الحقيقة؟ كيف تعرفين هذه الفراشات الموجودة في بريطانيا، ما لم تكوني قد عشت في بريطانيا؟ ما لم تكوني انت بريطانية؟».

نظرت لوسي الى جهة اخرى وقالت ببرودة وهي تهز كتفيها:

«ربما قرأت عنها في مكان ما».

«اوه! لوسي!».

تطلعت بها الفتاة وقالت لها بانزعاج قبل ان تركض بعيداً عنها:

«انا لا اعرف من اكون. اني حقا اجهل ذلك. ولكن حتى ان كنت فعلاً ابنة اختك، فاني لا ازال مصممة على البقاء مع الخال خوان!».

شعرت ميراندا باليأس والحزن، وتبيّن لها انها غير قادرة على معالجة هذا الأمر بمفردها. ماذا عساها ان تفعل؟ احست بغضب شديد يتملكها، فتركت الفتاة تلهو وتلعب وعادت بسرعة الى حيث كان رافاييل مستلقياً. فتح عينيه فرآها تقف قربه وتنظر اليه شزراً. قفز من مكانه وسألها بلهفة:

«نعم يا آنسة؟».

«اريد ان اسألك شيئاً، يا سيد! هل عرض احدكم الطفلة على طبيب؟».

«طبعاً، طبعاً. فالطبيب رودريغز اجرى لها...».

قاطعته بمزيج من الاستغراب والاستياء، قائلة بحدة:

«انا لا اعني مجرد اي طبيب للصحة العامة! اني اتحدث عن اختصاصي، يا سيد! اتحدث عن طبيب متخصص بفقدان الذاكرة والاضطرابات النفسية».

«انا اعرف ما هو الاختصاصي، يا آنسة. والجواب، نعم. فقد احضر شقيقي طبيباً اختصاصياً من مكسيكو سيتي قبل عدّة اسابيع».

«وماذا كان تشخيصه وتحليله للمشكلة؟».

«اتصور انه كان من اصحاب الرأي القائل انها مسألة وقت فقط

قبل ان تستعيد الطفلة ذاكرتها».

تضايقت ميراندا كثيراً من برودة اعصابه وصرخت بوجهه قائلة:

«تتصوّر؟ ولكنك قلت انك طبيب! الم تبحث الموضوع معه؟».

«عذراً، يا آنسة، ولكنني لم اقل ابداً اني اختصاصي».

«ولكن لا بد ان لك رأياً في هذا الصدد، انا... انا لا اعلم ماذا افعل».

ابتعدت عنه بسرعة وغضب، لأن آخر شيء كانت تريده في حياتها هو الانهيار امامه! يجب ألاّ تشعر بالهزيمة لمجرد سماعها كلمات لوسي! انها هي الوصية القانونية على الطفلة... وليس خوان كوبراس!.

«كما قلت لك من قبل، يا آنسة، انت لا تعطين هذا الموضوع الوقت الكافي».

نظرت الى الوراء وقالت له بصوت منخفض:

«ليس لدي وقت كاف!».

اقترب منها، رافاييل قائلاً، وقد بدا ان صبره بدأ ينفد:

«اذن، ربما كان عليك اعادة النظر في هذا الأمر. اتيت الى هنا لايجاد طفلة عاشت في وادينا أربعة اشهر... عاشت مثلنا... واعتادت على اساليبنا وطرق حياتنا. وتتوقعين ان يتغير كل هذا خلال اسبوع... او عشرة ايام؟ اني اقول لك، يا آنسة، ان هذا الوقت غير كاف على الاطلاق! من غير المتوقع ان تتقبل الفتاة مثل هذا التغيير الجذري في حياتها بدون اعتراض او احتجاج. لو انها تعرفت عليك...».

«ولكنها لم تتعرّف عليّ!».

وانهمرت الدموع من عينيها وهي تمضي الى القول:

«وماذا يجب عليّ ان افعل؟ هل امضي... اربعة اشهر عائلة... كي اقنعها بأنها هي حقاً ابنة اختي؟ لا يمكن، لا يمكن! فلا وقتي يسمح بذلك ولا امكانياتي المادية!».

«انا موافق معك، فالوضع صعب».

«صعب؟ صعب؟ انه وضع مستحيل! ففي كل مرة اتحدث اليها، ترفع على ما يبدو سداً نفسياً منيعاً في وجهي! ماذا يمكنني ان اقول لها كي اكسب ثقتها؟ الا يمكنك مساعدتي؟ ارجوك! ارجوك!».

كررت كلمة الرجاء والمناشدة وهي تمسك بذراعه بقوة. كانت مفعمة بالأمل في حصولها على مساعدته، ولكن آمالها انهارت فجأة عندما ابعد يدها عن ذراعه قائلاً لها بصوت قاس:

«لا يمكنني القيام بشيء».

كانت على وشك الاقتناع بانه يكرهها. هزت راسها حزناً وأسى. كانت تعرف أنّ وجودها قربه يضايقه ويزعجه، ولكنها لم تدرك مدى تلك المضايقة... حتى تلك الساعة. نظرت اليه ملياً وقالت:

«وانا... انا آسفة، يا سيد. كان يجب ان اعرف انه يستحيل عليّ مناشدة اي فرد من افراد... عائلة كوبراس!».

ردّ عليها بألم ظاهر:

«لا تقولي ذلك! هذا ليس صحيحاً. انا كنت ساساعدك لو كان بامكاني ذلك، ولكني لست قادراً».

«حقاً؟ ولكن، لماذا؟ من الواضح انك تحتقرني ولا ادري ما هو السبب، اللهم الآ اذا كنت انت وشقيقك تريدان ابقاء لوسي هنا... وذلك لسبب أو لآخر».

«لماذا لا تصدقين، يا آنسة، انك... حسب رأيي... تستعجلين الأمور؟ ابقي هنا لبعض الوقت. لقد قلت لك ان والدتي ستؤمن لك كافة اسباب الراحة اثناء اقامتك في القصر».

«وانا لا اتمتع باقامتي في القصر. وفي اي حال، فانه يتحتم عليّ العودة الى لندن. واذا كان بامكان والدتك وشقيقتيك البقاء طوال حياتهن بدون عمل، فهذا لا يعني أنّ الجميع يشاطرهن الشعور ذاته... او حتى انهم يريدون ذلك. انا مثلاً، احب عملي واتمتع

به... ولا اريد ان افقده».

«اذن، فليس هناك اي شيء آخر يمكننا التحدث بشأنه».

نظرت اليه ميراندا بسخط واضح وسألته بغضب:

«حقاً؟ هل تعتقد فعلاً ان شقيقك سيسمح لي بأخذ لوسي بدون اي ممانعة قوية؟ هكذا، بكل بساطة؟».

ردّ عليها رافاييل بلهجة جافة بعض الشيء:

«سوف يتأكد الأب استيبان من أنّ اخي سيفعل ما هو الأفضل بالنسبة الى الطفلة».

«انها جملة مبهمة! وماذا تظن انه سيقرر؟ كيف يمكن لشقتي المتواضعة ان تنافس قصر كوبراس الفخم؟ الا يعتمد الأب استيبان في تأمين عيشه على النوايا الطيبة لشقيقك؟ اذن، فانه لن يعارض رغبات اخيك!».

«لا تنظري الى الأمور بمثل هذه المرارة، يا آنسة. فالمشكلة ستحل نفسها: جميع المشاكل تحلّ هكذا».

تطلّعت ميراندا بحزن ناحية لوسي، التي كانت تلعب بمرح وسرور، وقالت بأسى:

«اتمنى من صميم قلبي ان اصدق ذلك. رباه! اني اتمنى... اتمنى...».

توقفت عن اتمام جملتها بدون ان تعرف السبب. ماذا كانت تتمنى؟ هل تمنت لو انها لم تأت ابداً الى هذه البلاد، ام انها تمنت لو انّ الحادث لم يقع في المقام الأول؟ هذا هو بالطبع ما كانت تتمناه! وغلبت عليها الأنانية... فلو لم يقع ذلك الحادث، على رغم فداحته، لما كانت قد اتت الى وادي ليبا وتعرفت الى رافاييل! ولكن، لماذا؟ لماذا هذا التعلّق الواهم؟ فوقته لا يسمح له بملاقاتها الآ نادراً... لا بل انه يحتقرها! وماذا كانت تعني كارلا عندما وصفته بتلك الجملة الخشبية والقاسية بانه غير مهتم بالنساء؟ انها كاذبة! لا

يمكن الآ ان تكون كاذبة!.

كانت غارقة في افكارها وتأملاتها لدرجة انها لم تنتبه على الفور الى انّ رافاييل تركها وذهب الى حيث تلعب الفتاة الصغيرة. وتألمت ميراندا بحزنٍ وصمت، وعادت توجه الى نفسها تلك الاسئلة الصعبة. لماذا يكرهها؟ انه لطيف وساحر مع امه وشقيقتيه، حنون وطيب مع لوسي، مهذب ومخلص مع جميع ابناء الوادي... ومع ذلك فهو يعاملها هي بدون سواها وكأنها مصابة بالبرص! الا يمكنه على الاقل ان يعاملها بشيء من التهذيب؟ ماذا يقول للطفلة الآن؟ هل يؤكد لها انه لا يمكن لخالتها ابداً ان تنتزعها من عائلة كوبيراس التي تبنتها؟

خجلت من نفسها ومن هذه الافكار الشريرة التي راودتها للحظة. فمن غير الممكن ابداً ان يلعب رافاييل دوراً مزدوجاً. ربما كان يقول للطفلة اشياء تشجعها على ان تثق به وبخالتها كما تثق بخوان. تطلّعت مرة ثانية فرأتهما يبتعدان عن البحيرة ويتسلقان الصخور. قامت من مكانها وسارت حتى حافة البحيرة. ولما شاهدت جذع شجرة قديمة، نصفه في الماء والنصف الآخر على اليابسة، صعدت اليه وراحت توازن نفسها عليه محاولة منها لنسيان تلك الافكار المزعجة. وفجأة، فقدت توازنها وهوت في الماء! وما هي الآ لحظات، حتى وجدته قربها يقول لها:

«لا تجزعي! سوف اساعدك».

«شكراً، ولكن... لا داع لذلك».

تجاهل اعتراضها وامسك بكتفيها، ثم سبح بها تلك الامتار القليلة الى الشاطىء. وبمجرد ان تمكن من الوقوف، حملها بين ذراعيه وتوجه بها الى صخرة مسطحة دافئة. تسارعت دقات قلبها نتيجة لهذا التحول المفاجىء، وشعرت برغبة قوية للتظاهر بالخوف والرعب... كي تتمكن من وضع ذراعيها حول عنقه. ولكن السعال عاوده بقوة، فاضطر لوضعها على الارض. زلت قدمها

وكادت ان تقع، لو لم يمد يده بسرعة ويمسك بذراعها. الآ ان قدمها انزلقت ثانية ووقعا معاً على الحصى. واحست ميراندا بان جسمه فوقها يحبس عليها انفاسها. نظر الى عينيها الخضراوين المذهولتين وقال لها متمتماً، فيما كان يضع يديه قرب رأسها ليرفع نفسه عن صدرها:

«اوه، آسف! آسف جداً، يا آنسة!».

استعادت ميراندا انفاسها وقالت له:

«انا... انا بخير. لم... لم تلحق بي اي اذى».

حرك رأسه صعوداً ونزولاً الآ انّ عينيه الجذابتين ظلّتا مركزتين على وجهها. تأمل خديها وعينيها... وشفتيها، وبدا انه يتمتع بوجوده على ذلك الشكل. خفق قلبها بقوة وشعرت بالدماء تغلي في عروقها. اثارها التصاق جسده الدافىء بها، واحست هذه المرة بانها ليست واهمة في شعورها تجاهه. تأوهت بسرور قائلة:

«اوه، رافاييل!».

ولكن ملامحه تبدلت فجأة واصبحت قاسية وغاضبة. هب واقفاً وهو يقول بانفعال واضح:

«رباه! ما هذا؟ انهضي! انهضي، يا آنسة! سنذهب! سنذهب على الفور!».

شاهدت لوسي ما جرى فركضت نحوهما. ولكنها شعرت بخيبة امل مريرة عندما سمعت كلماته الاخيرة، وسألته بلهفة:

«هل سنذهب، يا خالي رافاييل؟ ولكن، لماذا؟ لماذا؟».

ثم نظرت الى ميراندا بغضب واشمئزاز وعادت تسأله:

«لماذا لا نكتفي بان تخلع هي ثيابها وتجففها هنا؟ لماذا نضطر جميعاً للعودة باكراً لمجرد انها غبية وسخيفة».

وقفت ميراندا بعصبية وقالت للطفلة بحدّة ظاهرة:

«يبدو انك لم تلاحظي يا لوسي ان خا... ان السيد رافاييل ايضاً هو مبتل الثياب!».

«اعرف. ولكن سبب ذلك هو مسارعته لانقاذك!».

«لم يكن احد مضطراً لانقاذي، وكنت قادرة تماماً على سباحة تلك الامتار القليلة».

نظرت الى رافاييل وشعرت بالغضب الشديد لأنه بدّد بلحظة واحدة، وببرودة اعصاب لا تصدق، احلامها وآمالها. ولكنها تمكّنت على الاقل من اثبات امر بالغ الاهمية وهو انّ رافاييل ليس بذلك الرجل الذي لا يبالي بالنساء...

«في اي حال، بامكان الخال رافاييل ان يخلع قميصه. كما ان سرواله سيجف...».

قاطعتها ميراندا بحدة قائلة:

«خالك رافاييل بحاجة لارتداء ثياب جافة، وبخاصة لأنه مصاب بالزكام وتنتابه بين الحين والآخر موجات قاسية من السعال».

«كان عليك الاّ تلعبي على ذلك الجذع السخيف! كان عليك كآنسة راشدة الاّ ترتكبي مثل هذه الحماقات و...».

«اخرسي، يا لوسيا!».

قالها رافاييل بحدة، فيما كان يخلع قميصه ويمدّ يده نحو الطفلة الصغيرة لمساعدتها على تسلق الصخور التي تفصلها عن اللاندروفر. ثم اضاف قائلاً:

«سوف نذهب على الفور. وبامكان الآنسة... خالتك... ان تخلع ثيابها المبللة وتلف نفسها بالسجادة الرقيقة والخفيفة التي احتفظ بها في السيارة. اما انا فبامكاني الانتظار حتى وصولنا».

ارادت ميراندا ان تحتج على ذلك، لأنه هو بحاجة اكثر منها لتجفيف نفسه فوراً. ولكنها ادركت ان احتجاجها سيذهب هباء لأنه رجل عنيد لا يقبل الاعتراض... وبخاصة منها هي بالذات!.

وفي طريق العودة، تألمت ميراندا كثيراً لأن سعاله ازداد حدة ووجهه ازداد اصفراراً. ارادت ان تقول له شيئاً، اي شيء، لتظهر له انها مهتمة بأمره وبما حدث له... بغض النظر عمّا يشعر هو به

تجاهها. ولكنها خافت من ردّ فعل عنيف، فظلّت صامتة حتى وصولهم الى باحة القصر. وما ان نزلت ميراندا ولوسي من السيارة، حتى قال كلمة وداع وحيدة وغادر على الفور. وتذكرت ميراندا أنّ ثيابها المبللة لا تزال في صندوق سيارته! توترت اعصابها وتمنت الاّ تلتقي احداً وهي في مثل تلك الحالة!.

دخلت الفتاتان الى القاعة صامتتين، وكان التمرّد والحنق باديين بوضوح على وجه لوسي الصغير. ولم تحاول ميراندا ان تحدثها بشيء، اذ ان تلك الرحلة الصباحية كانت اشبه بالكارثة من جميع جوانبها. ركضت لوسي نحو قاعة جانبية بدون ان تقول شيئاً مع ان خالتها عرفت السبب... وما ان رأت خوان حتى استدارت ميراندا بسرعة لتصعد الى غرفتها قبل ان يراها احد وهي تلف جسدها شبه العاري بسجادة رافاييل.

«آنسة لوردا».

سمرتها لهجة والدته المذهولة في مكانها، ثم ادارت وجهها رغماً عنها نحو مضيفتها قائلة:

«اسعدت صباحاً، يا سيدة ايزابيللا».

تجاهلت السيدة المسنة تحيّتها الصباحية وراحت تمطرها بوابل من الاسئلة التي تعكس صدمتها ودهشتها:

«ما هذا، يا آنسة؟ كيف تفسرين وضعك هذا؟ اين كنت؟ ماذا كنت تفعلين؟ واين الصغيرة؟».

تنهدت ميراندا وشدّت تلك القطعة جيداً حول صدرها، ثم قالت:

«وقعت... وقعت في البحيرة».

«أنت... وقعت... في البحيرة؟ هل كنت... مع رافاييل؟».

«نعم. الم تعلمي باننا ذهبنا الى البحيرة؟ الم تخبرك جبرائيل بذلك؟».

«وابن ابني، يا آنسة؟».

«ذهب، يا سيدتي. فهو ايضاً كان مبتلاً».

ازداد توتر سيدة القصر وبدا انها تريد معرفة كافة التفاصيل، اذ سألتها بحدة عن السبب. تنهدت ميراندا وقالت لها بهدوء:

«سأخبرك كل شيء. ولكن، هل تسمحين لي اولاً بان اجفّف نفسي وارتدي ثيابي؟ هذه السجادة الصوفية ليست مريحة ابداً كما تعلمين، يا سيدة ايزابيللا».

حدّقت بها مضيفتها ببرودة، وبدا واضحاً انها غير مكترثة على الاطلاق براحة هذه الشابة الغريبة. ولكن شعور الضيافة والمجاملة ارغمها على ان تقول لها بعد فترة من الصمت المزعج:

«حسناً، ولكن يجب ان تعودي بسرعة لابلاغي بما حدث. لدينا ضيوف هذا اليوم... خطيبة ابني، الآنسة فارغاس ووالديها. ومن الطبيعي الاّ نتحدث بهذه الأمور امامهم».

«طبعاً، يا سيدة ايزابيللا».

«والصغيرة؟ هل اعيدت الى الدير؟».

«لا. اعتقد انها تبحث الآن عن خوا... اعني السيد خوان».

«اوه، انه لأمر مزعج للغاية! يجب ان اجدها على الفور، اذ لا يمكن السماح لها بالهاء ابني عن حديثه مع خطيبته ووالديها. سأذهب الآن لايجادها. سوف تعيدها ابناز الى الدير حالاً».

«ولكن... ولكن الا يمكن ان اتناول وإياها الطعام معاً... في غرفتي؟ اعني... ان من شأن ذلك ان يمنحنا بعض الوقت على انفراد... كي نتعرف اكثر الى بعضنا».

فكرت السيدة ايزابيللا ملياً ثم قالت لها:

«لما لا، فهذا التعرف قد يساعد على حلّ المشكلة. صحيح ان خوان يريد بالتأكيد بقاء الطفلة هنا، ولكن فالنتينا... الآنسة فارغاس... قد ترى غير ذلك تماماً. اضافة الى ذلك، فان والديها سيعارضان بشدة قيام وضع كهذا. سوف ارسل لكما طعام الغداء

الى غرفتك، يا آنسة».

«شكراً، يا سيدتي».

كانت موافقة ربة البيت تنازلاً بسيطاً من جانب عائلة كوبراس. ومع ذلك، شعرت ميراندا للمرة الاولى منذ وصولها الى المكسيك بانها ترغب في الاستسلام للوضع القائم... للأمر الواقع. وقالت لنفسها بأسى بالغ انها تشك كثيراً في أنّ لوسي ستجدها بديلاً مناسباً... للخال خوان!

٨ - قلق الحب

نزلت ميراندا الى القاعة بعد حوالى ربع ساعة لتجد احدى الخادمات بانتظارها.

«أرسلتني السيدة ايزابيلا لملاقاتك، يا آنسة. هلاّ تفضلت معي؟».

كانت سيدة القصر والفتاة الصغيرة في غرفة انتظار جانبية. وعندما دخلت ميراندا، طلبت السيدة ايزابيلا من الخادمة الانصراف وقالت للضيفة الشابة:

«اخبرتني لوسي. بما حدث، يا آنسة».

تطلعت ميراندا نحو الطفلة باستغراب قائلة:

«حقاً؟».

«نعم، يا آنسة. ومن المؤسف أنها اخبرت الجميع، بما في ذلك ضيوف ابني». هزت ميراندا كتفيها وقالت:

«أنا آسفة».

«يبدو انك كنت مهملة جداً يا آنسة. لحسن الحظ ابني كان هناك لانقاذك».

«لا اعرف ماذا قالت لك لوسي، يا سيدتي. ولكني لم اكن بحاجة لمن ينقذني، فأنا سباحة ماهرة».

هزت السيدة رأسها وقالت لها بلهجة حازمة وصارمة:

«مع ان كلامك هذا لا يتوافق كثيراً مع المعلومات المتوفرة لدي، الا انني لن اجادلك. يكفي القول ان تصرفك سبّب بعض الاحراج لابني... أو بالأحرى له ولأخيه. وعليه، فمن الأفضل ان تلزمي غرفتك بقية هذا اليوم».

احست ميراندا بأن وجهها يكاد يحترق وبأن يديها ترتجفان كورقة في مهب الريح. شعرت وكأنها طفلة صغيرة تعاقب امام رفيقاتها، وحز في نفسها كثيراً ان تتحدث معها السيدة ايزابيلا بتلك اللهجة امام لوسي. ومما زاد في تأثرها ان لوسي ستجد الأمر مسلياً وترفيهياً. استجمعت شجاعتها وقالت بهدوء:

«حسناً، يا سيدة! هل هذا كل شيء؟».

«تحدثت الى ابني بالنسبة الى موضوع الغداء، وقد سمح للفتاة بتناول الطعام معك في غرفتك. وسوف يعيدها السائق بعد ذلك مباشرة الى الدير».

حان دور لوسي ليبدو عليها الانزعاج، اذ قالت:

«اوه، ولكن يا خالتي ايزابيلا...».

قاطعتها سيدة القصر بلهجة حازمة، قائلة:

«ستفعلين ما هو مقرر، يا لوسي. والآن، اعذراني. يجب ان اعود الى ابني وضيوفه».

راحت لوسي تقطع الغرفة ذهاباً واياباً وهي بادية الانزعاج، فيما

كانت ميراندا تراقبها وتحاول ايجاد الكلمات المناسبة للتحدث معها. ثم سألتها:

«حسناً؟ ما رأيك بالذهاب الآن الى غرفتي. بما انه حظر علينا معاً الجلوس الى طاولة الطعام؟».

«ألست غاضبة مني؟».

ابتسمت ميراندا وسألتها بمحبة:

«ولماذا اغضب منك، يا لوسي؟».

احمر وجه الطفلة وقالت بتردد:

«لا ادري... لا أدري. تصورت انني ربما اغضبتك».

«ما تعنيه بالضبط، يا صغيرتي، انك تختلقين قصصاً وتخافين من ان اقرر معاقبتك على ذلك. صحيح؟».

هزت لوسي كتفيها وقالت بعنفوان واضح:

«لا. فكل ما قلته هو انك وقعت عن جذع شجرة قديمة وان الخال رافاييل انقذك».

امسكت ميراندا بكتفي قريبتها الصغيرة، وسألتها بجدية ظاهرة:

«هل كان هذا كل شيء؟ حقاً كل شيء؟».

تململت الفتاة بانزعاج وردت بالايجاب. سألتها ميراندا ان كانت متأكدة من ذلك، فأجابت بتلعثم:

«نعم، على الأقل... اوه، قلت انك... انك...».

«انني ماذا؟».

«قلت انك... انك صرخت... طلباً للمساعدة!».

صعقت ميراندا وقالت لها بانقباض بالغ:

«اوه، لوسي! ماذا فعلت؟ انت تعرفين ان ذلك ليس صحيحاً».

تنهدت الفتاة بتأفف وقالت:

«الم يكن الاحتمال وارداً؟ ثم... الم يحملك الخال رافاييل بين

ذراعيه حتى الشاطىء؟».

«لا عجب في ان السيدة ايزابيلا كانت بادية الانزعاج الى ذلك الحد. من المؤكد انها تعتقد بأني رميت نفسي عمداً!».

«وما الذي يدفعها الى هذا الاعتقاد؟».

«اوه، لا بأس. لماذا لا نذهب الآن لتناول طعام الغداء؟ في اي حال، يبدو انه لا يوجد كثير من الأمور يمكننا التحدث بشأنها».

تناولت الفتاتان طعام الغداء الذي احضرته ايناز، ولم تتبادلا سوى بضع كلمات موجزة ومحددة. ولكن ميراندا احست بأن لوسي تنظر اليها وتتأملها باستمرار، وتمنت ان تعرف ماذا يجول برأس تلك الطفلة. وعندما اخذت ايناز الصحون الفارغة، اخذت لوسي تتأمل الغرفة باهتمام واضح. ثم قالت:

«انها غرفة جميلة جداً، اليس كذلك؟».

«اني معتادة على غرف اقل فخامة بكثير».

«فخامة؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟».

«اوه... ترفيه، اناقة، ثراء! انا معتادة على مساكن اكثر تواضعاً».

«في بريطانيا؟».

«طبعاً».

«انت تعيشين في لندن، اليس كذلك؟».

ردت عليها بالايجاب، ولكن مع شيء من الحذر. ابتسمت لوسي وقالت لها انها تعرف ذلك لأن الخال رافاييل اخبرها بالأمر. وعندما اعربت ميراندا عن شيء من الدهشة، قالت الطفلة انه ابلغها ذلك اثناء حديثهما القصير قرب البحيرة ومضت الى القول:

«واخبرني ايضاً ان اعداداً كبيرة من الناس تحضر من كافة ارجاء العالم لزيارة لندن. كما حدثني عن قصر الملكة اليزابيت. اتعتقدين

انني شاهدت الملكة اثناء وجودي في بريطانيا؟».

تلعثمت ميراندا وهي تقول لها كلمة نعم، فهزت الفتاة رأسها ومضت الى القول:

«اعرف، وقد اخبرت الخال رافاييل انني شاهدتها اكثر من مرة».

بدأ الأمل يعود تدريجاً الى ميراندا، ولكنها قررت متابعة الحديث بهدوء:

«وهل تذكرين ذلك، يا لوسي؟».

«طبعاً».

اخفت ميراندا دهشتها السارة بسرعة وسألتها بحنان:

«وهل تذكرين من كان معك آنذاك؟».

قطبت الفتاة حاجبيها وفكرت ملياً ثم اجابتها نفياً وبدأت بالقفز في ارجاء الغرفة. اخفت ميراندا ألمها وخيبة املها و... وفجأة تذكرت الصور الفوتوغرافية الموجودة في حقيبتها. اخرجت الصور باصابع مرتجفة، فيما كانت لوسي تقترب منها لتعرف ماذا تفعل.

«هذه... هذه أنا، هذه صورتي!».

حاولت ميراندا ان تبدو هادئة وكأن كل شيء طبيعي للغاية، وقالت:

«صحيح».

تراجعت لوسي خطوة الى الوراء وسألتها بانفعال:

«لماذا تريدنني ان اشاهد هذه الصور؟».

«من قال اني أريد ذلك؟ لم يطلب منك احد التطلع الى هذه الصور».

فكرت لوسي لحظة وهي بادية العصبية، ثم تغلبت حشريتها على ترددها وراحت تتأمل الصورة الأولى بهدوء وروية. وسألت ميراندا نفسها عما اذا كانت تقوم بخطوة حكيمة او رعناء! هل ستلحق بها

الصدمة من مشاهدة صور والديها ضرراً بدلاً من ان تساعدها على استعادة ذاكرتها؟ ليتها تعلم!

«من... من هي هذه السيدة؟».

«هذه... هذه اختي، يا لوسي».

«اختك؟ هل تعنين انها هي السيدة التي تقولين انها... انها امي؟».

احنت ميراندا رأسها وردت عليها بالإيجاب. بدأت لوسي ترتجف، ثم قالت:

«ولكن... ولكني لا اعرفها».

جمعت ميراندا الصور واعادتها الى الحقيبة وهي تقول:

«لا بأس، يا حبيبتي».

«كيف تقولين ذلك؟ يجب... يجب ان اعرفها، اذا كانت حقاً امي!».

«تمالكي نفسك، يا لوسي. تعالي، سأريك ما احضرته لك من لندن».

«هل احضرت لي شيئاً من لندن؟».

وقبل ان تتمكن ميراندا من الاجابة، سمعتها تقول باصرار:

«اريد... اريد اولاً ان اشاهد بقية الصور».

تنهدت ميراندا ثانية وقالت:

«الأفضل تأجيل ذلك الى وقت لاحق».

«لا!.. اريد مشاهدة جميع الصور... الآن!».

اخرجت ميراندا الصور بتردد، فانتزعتها لوسي من يدها انتزاعاً. وراحت الطفلة تنظر الى الصور الواحدة تلو الاخرى، بدون ان تظهر على وجهها اي ملامح غير عادية. وبدأت ميراندا تشعر بالحزن، وخاصة لأن لوسي اخذت في التململ والتأفف. وفجأة صرخت الفتاة الصغيرة وبرقت عيناها، فيما كانت اصابع يديها ممسكة بقوة

باحدى تلك الصور. اعطتها لميراندا وهي تبكي بتأثر بالغ وتقول متلعثمة:

«انظري! انظري! انه . . . انه فلاقي، أليس كذلك؟».

نظرت ميراندا بسرعة الى تلك الصورة لابنة اختها وهي تحمل هراً صغيراً ابيض اللون. شعرت بفرح عارم، وسألت الطفلة همساً:

«هل تذكرين. . . الهر الصغير؟ هرك فلاقي؟».

هزت الفتاة راسها وهي تبكي بانفعال وعصبية.

«هل تعرفين الآن ان هذه هي صورتك مع هرك فلاقي؟».

«نعم. . . نعم. عندما. . . عندما كنت. . . كنت طفلة. . . طفلة صغيرة».

تنهدت ميراندا بارتياح وقالت:

«هذا صحيح. هل تتذكرين شيئاً آخر؟».

فكرت الفتاة لحظة ثم هزت راسها بعصبية وهي تقول:

«لا. . . لا».

«لا بأس، يا حبيبتي. جففي دموعك الآن. انها على الأقل بداية. . . وبداية طيبة طبعاً. فعلى الأقل تتذكرين فلاقي!».

تأملت لوسي الصورة مجدداً وسألت بهدوء:

«اين. . . اين هو فلاقي الآن؟».

«انه. . انه في لندن».

«مع. . . امي و. . . وابي؟».

«لا، يا حبيبتي. انه يعيش حالياً مع السيدة كروس».

«ولكنه لي!».

شرحت لها ميراندا بهدوء مشكلة الحجز الصحي التي تواجهها الحيوانات المنزلية الأليفة كالقطط والكلاب عندما تنقل من بلاد الى اخرى. واذهلتها الطفلة عندما قالت لها فجأة:

«ولكني ساجده هناك عندما اعود؟».

«اوه! اعتقد. . . اعتقد ذلك».

«عظيم، لأني احب هذه الحيوانات اللطيفة كثيراً».

وفي تلك الليلة قررت ميراندا ان تكتب الى مديرها لتشرح له بأن الأمور تأخذ وقتاً اطول مما كانت تتوقع. . . وانها بحاجة الى اسبوع اضافي لانهاء مهمتها. من المؤكد انه سيسمح لها. يجب ان يسمح لها بذلك. . . لأن قلبها لا يريدها ان تترك الوادي. . . ورافاييل. . . بمثل هذه السرعة!

في صباح اليوم التالي، التقت ميراندا خطيبة خوان. . . فالنتينا فارغاس. كانت تجلس معه على الشرفة الأمامية عندما نزلت ميراندا من غرفتها التي تناولت فيها فطورها كالمعتاد. وكانت تجلس معهما ايضاً سيدة مسنة، لا بد ان تكون والدة الشابة وحارستها الأمينة. ترددت ميراندا بالانضمام اليهم، ولكن خوان اصر على ذلك وعرّف الضيفات الثلاث على بعضهن. وعندما قدمت القهوة وعاد خوان الى مقعده، نظرت اليها السيدة فارغاس وسألتها بهدوء:

«انت خالة الطفلة التي التقيناها امس، يا آنسة؟».

«نعم، انا خالتها».

لم ترد الفتاة او امها على الابتسامة بالمثل، وظل وجهاهما جامدين كالصخر. ثم عادت السيدة فارغاس الى متابعة الحديث:

«ومتى ستعودين بالطفلة الى بريطانيا، يا آنسة؟».

تطلعت ميراندا بشيء من الانزعاج نحو خوان، ثم اجابت بتأن:

«في اسرع وقت ممكن، يا سيدة فارغاس. لقد تعقدت الأمور الى حد ما لأن لوسي لا تتذكر شيئاً».

«علمت هذا الأمر من السيدة ايزابيلا».

ثم عبست وهي تنظر الى خوان قائلة:

«ما لا افهمه هو سبب تمضية الطفلة مثل هذا الوقت الطويل هنا. كما اني بصراحة لا افهم سبب وجود الآنسة لورد هنا!».

احمر وجه ميراندا حياء وانقباضاً، ولكن خوان سارع الى الدفاع

عنها قائلاً:
«الآنسة لورد ضيفتنا، يا سيدة ماريا، ووجودها هنا هو بطلب مناه.
هزت السيدة فارغاس رأسها وسألته بشيء من الحدة:
«ولكن المسألة بالتأكيد هي من اختصاص السلطات المسؤولة، أليس كذلك؟».
ردّ عليها خوان بحزم قائلاً:
«لقد جعلت المسألة من اختصاصي انا، يا سيدة ماريا. انها طفلة... رائعة، أليس كذلك؟».
تدخلت فالنتينا في الحديث لأول مرة منذ وصول ميراندا قبل قليل، وقالت لوالدتها:
«ما يعنيه خوان، يا أمي، انه... انه يحب الطفلة».
ازداد عبوس السيدة وهي تسأل باستغراب واضح:
«يحب الطفلة؟ ماذا يعني ذلك، يا خوان؟».
«يعني انني احب الطفلة، وقد ابلغت فالنتينا بالأمر».
هزت السيدة فارغاس رأسها بتململ وقالت له:
«ربما حان الوقت، يا خوان، كي يكون لك اطفال من لحمك ودمك... لتحبهم!».
«لا ضرر على الاطلاق في رعاية الطفلة والاهتمام بها، يا سيدة ماريا. انها في وضع حرج وبحاجة لكل مساعدة».
تدخلت ميراندا قائلة:
«ما يعنيه السيد خوان انه لم يكن للطفلة احد قبل وصولي الى هنا، يا سيدة فارغاس. ويمكنني القول بدون تردد انه كان طيباً معها للغاية، وان لوسي متعلقة به الى درجة كبيرة».
نظرت اليها السيدة المسنة بعينين باردتين، وقالت لها بخبث واضح:
«اعتقد ان بامكان خطيب ابنتي شرح مواقفه بنفسه شكراً، يا

آنسة».
شربت ميراندا جرعة من القهوة وذلك كيلا تضطر للاجابة بكلام قد تندم عليه. مسكين خوان لو ان فالنتينا اصبحت مثل امها في السنوات اللاحقة! حولت السيدة فارغاس انتباهها الى خوان ولكنه لم يفسح لها المجال لمتابعة هجومها اذ سأل ميراندا بتهذيب ولياقة:
«هل كنت ترغبين في التحدث معي، يا آنسة؟».
«نعم. كنت اود استئذانك بأن يأخذني السائق الى الدير هذا الصباح لمقابلة لوسي، وبخاصة... لأن لديك ضيوفاً».
تحوّل الانزعاج الى خوان، الذي قال بحزم:
«سوف يحضر دياز الطفلة الى هنا كالمعتاد، يا آنسة».
توترت اعصاب فالنتينا وقالت بشيء من الحدة:
«لا! وعدتني بأن نقوم بجولة على ظهور الخيل. دع الآنسة تذهب الى الدير، يا عزيزي. سيكون ذلك افضل بكثير».
احست ميراندا بتضارب المشاعر التي يتعرض لها خوان. هل يصر على رأيه ويجازف باحتمال حدوث مشاجرة مع خطيبته، ام يوافق على طلبها... مفسحاً المجال بالتالي لميراندا كي تنفرد بالطفلة؟ القرار صعب، واتخاذه اصعب! تدخلت السيدة فارغاس وقالت باصرار:
«فالنتينا على حق، يا خوان، فانتما لم تمضيا معاً من الوقت الا النذر القليل. وليس من الحق ان يسمح لهذه الطفلة... بأن تعرقل مشاريعكما او مخططاتكما. قل للآنسة لورد ان بامكانها الذهاب الى الدير، فكلما تم الاسراع بحل هذه المعضلة كلما كان ذلك افضل».
فكر خوان طويلاً ثم امسك بيد خطيبته قائلاً:
«حسناً، يا عزيزتي، بامكان الآنسة لورد ان تذهب الى الدير. الا انه يمكنها ايضاً احضار الصغيرة الى الغداء. اتفقنا؟».
قبلت فالنتينا شرطه بدون اي تعليق. واحست ميراندا بأن القبول

جاه على مضض. وشعرت بأن بقاء لوسي في الوادي الأخضر ليس فكرة معقولة اطلاقاً، وبأن الظروف ستفرض على خوان قبول هذا الأمر عاجلاً ام آجلاً. اذا تزوج فالنتينا مستقبلاً، فمن المؤكد انه لن يكون هناك مكان في بيتها لطفلة بريطانية يتيمة. وعزز هذا الشعور تصميمها على الاستمرار في محاولة كسب ثقة الطفلة ومودتها. ومما زاد من اصرارها على ذلك، التحول الهام الذي حدث بعد ظهر اليوم السابق. اذ ان لوسي بدت اكثر استعداداً لاعتبار خالتها انسانة تهتم بها من صميم قلبها... وليست انسانة تهدد حاضرها ومستقبلها في الوادي الجميل.

امضت ميراندا وابنة اختها فترة ما قبل الظهر بكاملها حول الدير، تركضان وتلعبان وتتحدثان. ولما لم يعد دياز عند الظهر لاعادتهما الى القصر، اصر الأب استيبان على ان تشاركه الفتاتان طعامه البسيط المتواضع. وفيما خرجت لوسي لمتابعة لعبها في باحة الدير، بحث الكاهن العجوز وميراندا موضوع الطفلة والتحول الهام الذي برز قبل اقل من عشرين ساعة.

عاد دياز حوالى الرابعة بعد الظهر ومعه رسالة تقضي بعدم ذهاب لوسي ذلك اليوم الى المزرعة. عادت معها ميراندا بعد ان ودعت الطفلة الحزينة التي اصيبت بخيبة امل مريرة نتيجة لذلك القرار. وفي مدخل القاعة الرئيسية للقصر، التقت ميراندا احدى الشقيقتين. رفعت يدها محيية، ظناً منها انها كونستانسيا. رفعت كارلا حاجبيها استغراباً لدى مشاهدتها ميراندا، وسألتها بسخرية:

«ماذا كنت تفعلين، يا آنسة؟ تقفزين على اكوام القش؟ انك في حالة يرثى لها».

اخفت ميراندا حنقها وامتعاضها، وقالت بهدوء:

«كنت العب مع لوسي، يا آنسة. ثم... ثم اني لست من النوع الذي يهتم كثيراً بالمظاهر الخارجية».

«حقاً، يا آنسة؟ ولماذا هذا التحول المفاجىء؟ الآن شقيقي خوان

غارق الآن مع خطيبته الفائقة الجمال، في حين ان الشقيق الآخر غارق في... في امور اخرى؟».

سارت ميراندا نحو الدرج لأنها لم تكن راغبة في مجادلة كارلا، او حتى في الرد عليها. ولكنها تمنت لو كان بامكانها ان تسأل تلك الشابة اللعينة عما تعنيه بالأمور الاخرى. ثم سمعت كارلا تسألها:

«هل التقيت رافاييل اليوم؟».

تمهلت ميراندا لحظة قبل ان ترد عليها بكلمة نفي واحدة.

عبست كارلا، ومضت الى القول:

«هذا ما كنت اتصوره، اذ يبدو ان ما من احد شاهد رافاييل منذ رحلتكما غير الموفقة الى البحيرة. صحيح؟».

«هل تحاولين الايحاء بأمر ما، يا آنسة؟».

هزت كارلا بكتفيها وقالت ببراءة مصطنعة:

«وماذا يمكنني الايحاء به، يا آنسة؟ لا، ابداً! الا انني قلقت بشأن اخي، وهذا كل شيء. ولكن، لا تدعيني ابقيك هنا طويلاً. انا متأكدة من انك... تريدين التبرج قليلاً».

حبست ميراندا انفاسها كيلا توجه كلمات نابية الى تلك الشابة المزعجة، وتوجهت بسرعة الى غرفتها. واثناء استحمامها، عادت ملاحظات كارلا تضج في رأسها وتزعجها. كانت تتوقع من كارلا ان تقول لها ساخرة ان رافاييل اعاد لها ثيابها، ولكنه يبدو ان ذلك لم يحدث. لماذا، اذن، لم يشاهده احد منذ صباح اليوم الفائت؟ هل هو مريض؟ واذا كان كذلك، افلا يبلغ امه او احداً آخر بالأمر، لا، طبعاً لا، فهو على درجة كبيرة من الاستقلالية والاعتماد على الذات. وتذكرت كيف اضطرت والدته لمناشدته الحضور الى العشاء. ولكن، ماذا سيحدث له اذا كان مريضاً ووحيداً في ذلك البيت الحجري قرب النهر؟ من سيهتم به ويرعاه؟ من سيعد له طعامه ويرتب له بيته وغرفته؟.

آلمها جداً ان تكون هي، المتمتعة بصحة جيدة، موجودة في هذه

الغرفة المريحة للغاية تهتم بها ثلاث خادمات على الأقل... في حين انه هو، المريض المعذب، ينام وحيداً في بيت صغير متواضع لا يساعده احد على الاطلاق. وقررت فجأة ان عليها زيارته صباح اليوم التالي للاطمئنان على صحته. وبما ان السيدة فارغاس سوف ترغم خوان على ارسالها هي الى الدير، عوضاً عن احضار لوسي الى القصر، فانها ستطلب من دياز ان يمر بها اولاً... على بيت رافاييل.

٩ - هل تتحرك مشاعره

لم تذهب ميراندا صباح اليوم التالي الى الدير، لأن خوان ارسل دياز باكراً قبل ان يتمكن احد من الاعتراض على اوامره. وبعدما تناولت ميراندا فطورها في غرفتها كالمعتاد، نزلت الى القاعة لتفاجأ بابنة اختها جالسة على ركبتي خوان وهي تأكل قطعة من البطيخ من صحنه. لم تكن السيدة فارغاس او ابنتها معها. الا انه كان هناك رجل كهل تصورت ميراندا انه والد فالنتينا. قدمها خوان الى بعضهما، فقال لها الرجل بوجه بشوش:

«انضمي الينا، يا آنسة».

ترددت ميراندا لحظة ثم قالت:

«اوه، شكراً. شكراً».

ثم نظرت الى لوسي وقالت لها:
«لم اتوقع وجودك هنا، يا لوسي».
هزت الطفلة كتفيها وقالت بلهجة الواثق من نفسه:
«كنت اعلم بأن الخال خوان يريد مشاهدتي اليوم. اعتقد ان دياز ارتكب خطأ ما امس. اليس كذلك، يا خالي خوان؟».
«لنقل انه حدث... نوع من سوء التفاهم، يا صغيرتي. المهم انك الآن هنا».
ابتسمت لوسي بارتياح، ولكن ميراندا تنهدت بأسى. بالامس، قدم خوان تنازلاً غير متوقع. واليوم. ستضطر ميراندا للدخول معه في منافسة قوية... معروفة النتائج سلفاً. لن يترك خوان الطفلة طوال فترة وجودها في القصر.
جلست ميراندا شاكرة، وراحت تجيب بصدق وتهذيب على اسئلة السيد فارغاس عن الحياة في بريطانيا. اعترفت له بأنها وحيدة في العالم، لولا وجود لوسي. اخبرته بانها تعمل كسكرتيرة لدى احد رجال الأعمال والمال، وانها تسكن شقة صغيرة في احدى ضواحي لندن. ثم نظرت الى خوان وقالت له ان لديها رسالة تريد ان تبعث بها الى لندن.
بدا الذهول على وجهه وسألها بلهجة شبه مذعورة:
«أنت لست عائدة الآن، يا آنسة؟».
«كلا. في الواقع طلبت من مديري تجديد اجازتي لمدة اسبوع اضافي. قال لي السيد رافاييل... اعني، هل تمانع ببقائي بضعة ايام اخرى، يا سيد؟».
«انا ابداً! انت تعلمين انك على الرحب والسعة، يا آنسة».
وما ان شكرته بارتياح على ذلك، حتى سمعت السيد فارغاس يسأله:
«افهم ان رافاييل لا يزال هنا، يا خوان. كنا نتوقع ان يكون قد

عاد الى مكسيكو سيتي».
هز خوان كتفيه وقال بهدوء:
«تصر والدتي على ابقائه هنا اطول مدة ممكنة، يا سيد كارلوس. فوجوده هنا يحملها على الأمل في اقناعه».
بدا الانزعاج على وجه السيد فارغاس وسأل مضيفه بقلق:
«ولكن، هل تعتقد ان ذلك امر محتمل».
ثم نظر الى ميراندا وقال لها معتذراً بأدب:
«آسف جداً، يا آنسة. اعذريني على هذا التصرف غير اللائق. سوف ابحث الأمر مع خوان في وقت لاحق».
ابتسمت ميراندا اعجاباً بلطافته الجمة، متمنية في نفسها لو ان زوجته كانت مثله. وقف الرجل وقال لهما:
«اعذراني الآن. يجب ان اذهب لمقابلة زوجتي. من المؤكد اني سأراك ثانية يا آنسة».
خيم الصمت لحظات قطعه خوان بعد ذلك فجأة بسؤال مثير للدهشة والاستغراب:
«انت لا تحسدينني ابداً، يا آنسة، اليس كذلك؟».
«ماذا... ماذا تعني، يا سيد؟».
«انت تعتقدين ان حياتي مع فالنتينا ستكون صعبة. صحيح؟».
احمر وجه ميراندا وقالت:
«انا متأكدة من ان هذا الموضوع لم يخطر ابداً ببالي، يا سيد».
«أبداً؟».
ثم تنهد وقال:
«في اي حال، انا اخصص له جانباً كبيراً من تفكيري. هل تعتقدين ان فالنتينا تحب لوسي؟».
رفعت ميراندا ذراعيها قائلة:

«ارجوك، يا سيد! هذا الموضوع ليس من شأني على الاطلاق!».

«صحيح؟ ربما لا اوافقك على هذا الرأي، يا آنسة».

«ماذا تعني؟».

نظر خوان الى لوسي التي انتهت لتوها من اكل البطيخ، والتي كانت تنظر اليهما بعينين واسعتين، وقال لها:

«اذهبي، يا حبيبتي، والعبي في الحديقة، اريد التحدث مع خالتك على انفراد».

احتجت الفتاة بغنج قائلة:

«الا يمكنني البقاء، يا خال خوان؟ لن احاول استراق السمع. اعدك بذلك».

ابتسم خوان وقال:

«لا، يا صغيرتي يجب ان تذهبي... خمس دقائق فقط. خذي ساعتي وعدي الدقائق الخمس. اتفقنا؟».

جزعت ميراندا عندما اعطى ساعته الذهبية الثمينة الى الطفلة الفرحة. ما هي بضع مئات من الجنيهات بالنسبة لخوان كويراس؟ لا شيء، تقريباً!

«والآن، يا آنسة، اصبحنا على انفراد ويمكننا التحدث بحرية».

«وماذا في الأمر، يا سيد؟».

ازاح صحنه جانباً ثم مد ذراعه فوق الطاولة وامسك بيدها. ادهلتها هذه الخطوة المفاجئة بحيث انها لم تعرف ماذا تفعل. شجعه عدم احتجاجها، فقال لها:

«يا آنسة، ما رأيك ان قلت لك انني اجدك... جذابة للغاية؟».

سحبت ميراندا يدها بسرعة ووضعتها على يدها الأخرى بعصبية، قائلة باستغراب:

«لا ادري لماذا تقول لي هذا الكلام، مع ان خطيبتك قد تظهر هنا

في اي لحظة!».

«وماذا لو قلت لك اني غير مهتم اطلاقاً بما قد تراه فالنتينا؟».

حبست ميراندا انفاسها ثم قالت له بانقباض:

«اني لا افهمك، يا سيد».

«الا تفهمينني حقاً، يا آنسة؟ انا اعتقد عكس ذلك».

توقف لحظة ثم مضى الى القول:

«ميراندا. انه اسم جميل. ميراندا... كويراس! الا تظنين ان ذلك افضل؟».

هبت ميراندا واقفة وقالت له بصوت مرتعش:

«اعتقد... اعتقد انك تثير حفيظتي يا سيد اذا... اذا كان ذلك كل ما تريد قوله، فاني سأذهب للتحدث مع لوسي و...».

«اوه، لوسي! لوسي الصغيرة الحبيبة! الا تريدين حل مشاكلها... ومشاكلك انت في وقت واحد؟».

«يا سيد، اني افكر فعلاً...».

«نعم، تفكرين! فكري في الأمر ملياً، يا ميراندا. اعتقد انك لا تأخذين كلامي على محمل الجد».

ثم امسك بيديها وجذبها نحوه برفق قائلاً:

«اني اعني ما اقول، يا عزيزتي. اعتقد انني احبك».

شهقت ميراندا دهشة واستغراباً وسحبت يديها بصعوبة من بين اصابعه القوية، ثم قالت:

«اني اجهل تماماً الهدف الذي ترمي اليه من وراء لعبتك هذه، يا سيد!».

«لعبة؟ انها ليست لعبة، يا ميراندا. اريد الزواج منك».

«انك لست جاداً!».

«بلى. بلى. الا ترين انني اصدقك القول؟».

«انت تفعل ذلك من اجل لوسي. انت لا تريدني انا، بل تريد

لوسي».

«اني اعترف... بانني متعلق بالفتاة الصغيرة. ولكن الزواج هو اهم... اهم بكثير من مجرد انجاب الأطفال».

احمر وجهها بقوة وشعرت بعقدة في لسانها. ولكنها قالت بتلعثم:

«انا... انا... انا آسفة!».

وصلت كارلا في تلك اللحظة وقالت له بدون ابطاء:

«ان فالديز لمقابلتك، يا خوان، وهو الآن في القاعة. اعتقد ان عليك ملاقاته فوراً، اذ يبدو ان نمراً هرب من الجبال بسبب الامطار الغزيرة وقتل عدداً من الماشية».

«اللعنة على الشيطان! حسناً، ساذهب لمقابلته. انتظريني هنا، يا ميراندا».

نظرت اليها كارلا بعد ذهابه وقالت لها بخبث واضح:

«يبدو انني كنت على حق، يا آنسة».

«لا، يا آنسة، انا لم افعل شيئاً. ولكن شقيقك يرتكب خطأ جسيماً».

«لن يسمح له بذلك!».

«عظيم هذا يناسبني تماماً».

«اذن... متى، ستغادرين المكسيك، يا آنسة؟».

«اغادر؟ لا اعرف. في اسرع وقت ممكن، على ما اعتقد. اوه، سابحث عن لوسي».

قالت الجزء الأخير من جملتها بحزم، ثم توجهت بسرعة الى الحديقة.

ظل خوان منشغلاً بأمور المزرعة طوال الصباح. وعند الظهر، وافقت السيدة ايزابيلا بكل سرور على طلب ميراندا السماح لابنة اختها بتناول الطعام معها.

وبعد الغداء، بعث خوان بطلب الى ميراندا ولوسي للانضمام اليه على الشرفة الكبيرة. فرحت لوسي كثيراً ولكن ميراندا قالت لها

انها مصابة بصداع، وطلبت منها ان تعتذر عن عدم حضورها.

استغربت الطفلة ذلك وقالت لها:

«لم يكن بك شيء قبل دقيقتين فقط!».

اضطرت ميراندا لمواصلة كذبها، فقالت:

«حدث الصداع بصورة مفاجئة جداً. سوف اشعر بالتحسن اذا اخذت الآن قسطاً من الراحة».

تنهدت ميراندا بارتياح بمجرد ذهاب الطفلة، لأنها كانت تريد الانزواء في غرفتها والاختلاء بنفسها. ماذا ستقول لخوان المصمم على الاحتفاظ بالفتاة؟ من المؤكد انه لا يحبها، وانه لا يريد الزواج منها الا للاحتفاظ بالفتاة! آه، لو كان رافاييل هو الذي طلب منها ذلك! رافاييل! ولكن امراً كهذا لا يمكن ان يحدث معه، فهو غير مهتم بها اطلاقاً! اين هو الآن؟ لماذا لم يأت؟ لماذا لم يرجع اليها ثيابها؟ كيف يمكنها ان تذهب اليه بدون ان يشعر احد بذلك؟ لا يمكنها ان تطلب سيارة، لأنهم سيسألونها عن الغاية من ذلك! لا يمكنها ان تذهب سيراً على الاقدام، لأن المسافة طويلة ولا تحب العودة وحيدة في الظلام!

الخيل! انها تعرف ركوب الخيل! لا احد سيفتقدها ان هي ذهبت وعادت بصورة سرية وخلال ساعة من الزمن! توجهت فوراً الى الاسطبل، وعملت على الا يراها احد خلال خروجها من القصر. اخذت حصاناً جميلاً من السائس الهندي الشاب بعد ان اوهمته ان السيد خوان سمح لها بذلك.

كان الطقس حاراً والرطوبة في مستوى عال. تمنت ميراندا ان تصل بسرعة الى منزل رافاييل هرباً من حرارة الشمس الحارقة. وما ان اقتربت من النهر وشاهدت البيت الحجري، حتى خفق قلبها بسرعة واحمرت وجنتاها بشدة. ولكنه بدا ان الحصان على غير عجلة من امره، فقد توقف فجأة قرب حافة النهر رافضاً التقدم خطوة واحدة. حاولت جاهدة حمله على متابعة الرحلة القصيرة، الا انه ظل

جامداً في مكانه لا يتحرك قيد انملة.

خافت من الوقوع في النهر، وقررت غاضبة النزول عن ظهره ومتابعة الطريق سيرا على الأقدام. الا انها فقدت توازنها ووقعت على الأرض. احست بألم شديد في رجلها وفي عامودها الفقري. ومما زاد في حنقها وانزعاجها انها لم تتمكن من الامساك بالحصان.

وصلت الى البيت بعد جهد فائق ودخلته حزينة، لأنها لم تعد بوضع يسمح لها بمساعدة احد. بدا البيت لأول وهلة خالياً تماما... غرفة الجلوس، المكتب، المطبخ! راحت تفتح الأبواب القليلة، الواحد تلو الآخر! اين هو؟ فتحت غرفة فيها سريران فارغان. ثم فتحت باب غرفة اخرى فيها ثلاث اسرة، وشاهدت رجلا مستلقيا في احدها. استمعت بألم وحسرة الى تنفسه المتقطع وزكامه الحاد! مسكين!

«ماذا تفعلين هنا، يا آنسة؟».

قفزت على رجلها السليمة بسرعة قائلة بذهول:

«رافا... رافاييل!».

لم تنتبه الى انها استخدمت اسمه الأول في مناداته. نظرت اليه بدهشة فائقة وتطلعت الى السرير قائلة باستغراب:

«كنت... كنت اظن انك... انك انت هنا!».

ابعدها رافاييل عن الباب ثم اغلقه بانفعال وقال لها ببرودة:

«سألتك عما تفعلينه هنا، يا آنسة».

«جئت... جئت للاطمئنان عليك. تصورت انك... مريض. لم... لم نعرف عنك شيئاً... منذ... منذ...».

سار رافاييل عبر القاعة وهو يتوقع منها مرافقته. وعندما لم تفعل ذلك عاد اليها وقال لها بتململ واضح:

«كنت منشغلاً جداً، يا آنسة. فكما ترين، هناك رجل مريض في الغرفة وانا مضطر للاعتناء به لأن الطبيب هو الآخر مصاب بنوبات قوية من السعال والزكام».

هزت ميراندا رأسها بتأثر. كان عليها الا تأتي. انها تعاني الآن من آلام حادة في ظهرها ولا تعرف سبيلاً للعودة الى المزرعة. وكيف ستستعيد الحصان الشارد؟ احست باوجاع تضرب رأسها وبحبيبات من العرق البارد تتجمع بقوة على جبينها. ولكنها استجمعت قواها وقالت له:

«اذن، لا بأس. اليس... كذلك؟».

لاحظ رافاييل اصفرار وجهها وشحوبه. وضع يده على جبينها فاحست بأن اصابعه باردة جداً.

«رباه! هل انت مريضة؟».

هزت رأسها بألم وقالت:

«انا... الحصان... كنت احاول النزول... عن ظهره و... و...».

ولأول مرة في حياتها، اغمي عليها ووقعت على الأرض...

عندما استعادت وعيها، كانت مستلقية على سرير صغير يلفها غطاء قطني رقيق. تذكرت الغرفة ذات السريرين الفارغين، التي شاهدتها اثناء بحثها عن رافاييل. تحركت قليلاً فلاحظت ان الامها خفت الى حد ما، وان جسدها شبه العاري مرتاح بعض الشيء. رفعت نفسها قليلاً لتنظر الى الخارج، فدهشت لأن الشمس بدأت تغيب. ودخل رافاييل الغرفة بدون سابق انذار!

رفعت الغطاء القطني بسرعة فوق صدرها واحمر وجهها خجلاً عندما تبادر الى ذهنها فوراً انه هو الذي خلع عنها ثيابها. وقف قربها وسألها باهتمام:

«هل تشعرين الآن بتحسن؟».

هزت ميراندا رأسها وقالت له، بعد ان ازاحت وجهها عنه بحياء:

«أشعر... اشعر بتحسن كبير، شكراً. اني... اني آسفة على هذا الازعاج الشديد. سوف اذهب بمجرد ارتداء ثيابي».

لم يرفع نظره عنها، بل قال بنبرة جادة لا تقبل النقاش:

«لن تذهبي الى اي مكان، يا آنسة. انت بحاجة للبقاء في هذا السرير عدة ايام. كنت محظوظة جداً للخروج من هذه المشكلة بمثل هذه البساطة كان من السهل جداً، لا سمح الله، ان تلحقي ضرراً بالغاً بعمودك الفقري».

نظرت اليه ميراندا وهي لا تصدق اذنيها، ثم قالت:

«ولكن، لا يمكنني البقاء... هنا!».

«لماذا؟».

تحركت بتململ في السرير الصغير وهي تدرك ان اي حركة خاطئة سوف تسبب لها ازعاجاً بالغاً. ثم قالت له:

«لا احد يعلم مكان وجودي. لوسي الآن في المزرعة وهي تظن... كالآخرين انني مرتاحة في غرفتي... نتيجة لصداع...».

«انك مرتاحة الآن، يا آنسة. لا تزعجي نفسك، فقد ابلغت عائلتي عن مكان وجودك. كما ابلغتهم بأنك لست الآن في حالة تسمح بنقلك من مكان الى آخر. انه لأمر مؤسف ولكن لا يمكن تفاديه».

ثم تنهد قليلاً ومضى الى القول:

«حسبما ارى في الوقت الحاضر، ليس هناك اي مشكلة في الظهر لا يمكن معالجتها. الا ان الأيام القليلة المقبلة سوف تثبت ما اذا كان تشخيصي للحادث صحيحاً ام لا».

تنهدت ميراندا وسألته بتمرد واضح:

«وهل انت غاضب مني؟».

قطب رافاييل حاجبيه وسألها باستغراب:

«غاضب، يا آنسة!».

«نعم... غاضب! انت تقف قربي وتخبرني هذه الحقائق حول الوضع الذي انا فيه مع انك بالتأكيد تشعر نحوي بالاشمئزاز والحنق لأني فرضت نفسي عليك كأمر واقع وبدون دعوة!».

وضع رافاييل يديه وراء ظهره وقال لها بهدوء:

«لقد اصبت بحادث لم يكن بسيطاً، يا آنسة. ومن الطبيعي ان ابذل ما في استطاعتي لمساعدتك... شأنك في ذلك شأن اي انسان آخر مصاب مثلك».

«اوه، شكراً لك!».

قالت كلماتها بلهجة ساخرة بعض الشيء لأنها ارادت اثارته ومعاملته بالمثل. ثم مضت الى القول بصوت مرتفع وحاد:

«واعتقد انك اعتبرتني كمجرد انسانة مصابة عندما حملتني بين ذراعيك واحضرتني الى هذه الغرفة... وعريتني من ثيابي. أليس كذلك؟».

«لا تفقدي اعصابك، يا آنسة. انا لا اخجل مما فعلت، لأنني طبيب. لقد كشفت على عدد كبير من النساء، وساعدت كثيراً من الحوامل على الانجاب. واؤكد لك بأنك لم تكوني مختلفة عن اي امرأة اخرى بحاجة لمساعدة طبية».

«اعرف ذلك، وهذا ما كنت اعنيه بالضبط».

«لا بد ان تكوني جائعة، يا آنسة. سوف احضر لك بعض الطعام».

امسكت معصمه بقوة وقالت له بشيء من الاسترحام:

«انا... انا آسفة. اعذرني لأني تصرفت باستهتار. انا اعرف انك بذلت اقصى جهدك لاجل مساعدتي. لا تغضب مني، ارجوك!».

نظر رافاييل الى يدها الممسكة بمعصمه وقال لها برفق وحنان:

«انا لست غاضباً منك، يا آنسة. اني ادرك ان نواياك الطيبة هي التي دفعتك لزيارتي، وهذا امر اقدره كثيراً واشكرك عليه. ولكنك الآن كمريضة في عيادتي وسوف ابذل قصارى جهدي للاعتناء بك».

«اوه، رافاييل! لماذا لا تتخلى ابداً عن تحفظك وحذرك البالغين؟

الا تشعر ابداً بأي عواطف او احاسيس تثيرك قليلاً؟».

احمر وجهه بسرعة ولم تعلم ميراندا ما اذا كان ذلك نتيجة تحرك مشاعره او غضبه. افلت معصمه من قبضتها وقال لها ببرود مزعج:

«سوف احضر لك الحساء، يا آنسة».

ثم غادر الغرفة بدون ان يلتفت اليها...

١٠ - عودة غير متوقعة

تعلمت ميراندا خلال الأيام التالية الاّ تتألم خجلاً وحياءً كلما اجرى عليها رافاييل فحوصات طبية تتطلب خلع ملابسها. وكانت فتاة هندية شابة تدعى ايفا مايور حضرت صباح اليوم الثاني وأبلغتها بأنها ستسهر على راحتها. كانت تعتني بسريرها، تزودها بالدواء، وتقدم لها الطعام. أما رافاييل فلم تره سوى فترة قصيرة صباح كل يوم.

كان يحضر في الصباح كأي طبيب غريب ليكشف على جروحها ويعطي التعليمات الضرورية للفتاة المكسيكية الشابة. وكانت ميراندا تئن بصمت متمنية لو ان تلك الأصابع القوية تداعبها وتلمسها بعاطفة وعشق ومحبة. الا انه كان يتركها دائماً بسرعة

وينصرف الى مهام اخرى مكتفياً بالقول:
«الى اللقاء، يا آنسة».
لم يزرها طوال فترة اقامتها هناك سوى شخص واحد... كونستانسيا. حضرت بعد ظهر اليوم الثاني ولكنه سرعان ما بدا لميراندا ان كونستانسيا اتت رغماً عنها. لم تعرف ميراندا سبب ذلك، الا عندما قالت لها بشيء من الانفعال:
«لا تريدك امي ان تعودي الى المزرعة عندما تستعيدين عافيتك، يا آنسة!».
«اوه!».
تنهدت كونستانسيا بحزن وقالت:
«انا آسفة، يا آنسة».
هزت ميراندا كتفيها وهي تقول:
«انه ليس خطأك، يا آنسة».
كانت ترتدي ثوباً قطنياً بشعاً يبدو انه يناسب رجلاً ضعف حجمها. استقرت في سريرها قليلاً ثم ابتسمت وقالت:
«ربما كان بامكانك ان تطلبي من احدى الخادمات توضيب حاجياتي، لأني بحاجة ماسة الى بعضها على الأقل».
احمر وجه كونستانسيا وقالت:
«احضرت كافة حاجياتك معي، وذلك نتيجة اصرار والدتي».
«حسناً، انا آسفة لأنها تشعر بمثل هذه الطريقة. ولكني لا ارى سبباً لشعور الحسد هذا، وبخاصة...».
«الحسد، يا آنسة؟ لا افهم ماذا تعنين».
«اعتقد بأنها تتصورني شابة مستهترة او ما شابه ذلك لأنني موجودة بمفردي مع رافاييل... اعني، السيد رافاييل، ليس ثمة سبب يدفعها الى...».
«طبعاً، طبعاً! كلنا نعرف ذلك. انها ليست قلقة بشأن رافاييل».

«واذن؟».
«خوان هو سبب قلقها، يا آنسة. انا لم اوضح لك الأمر على حقيقته بعد. لقد فسخ خوان خطوبته مع فالنتينا».
صعقت ميراندا وقالت:
«ماذا؟ انا لا اصدق ذلك».
«من المؤسف ان هذا ما يحدث فعلاً، لأن اخي لم يعد يفكر الا بالطفلة... وبك انت، يا آنسة».
«لم... لم اكن اعرف ذلك! لم... لم اكن اتصور...».
«اخبرت كارلا والدتنا انها شاهدت خوان يغازلك ويداعبك على الشرفة».
«يبدو ان كارلا تحب احداث المآسي وتدمير الآخرين! صدقيني، يا كونستانسيا، انا لم اشجع شقيقك على شيء! انا غير مهتمة به اطلاقاً!».
هزت كونستانسيا كتفيها وقالت بشيء من اللامبالاة:
«هذا لا يهم ابداً. فخوان رفض استمرار الخطوبة وغادرت فالنتينا ووالدها المزرعة صباح اليوم».
تنهدت ميراندا بانزعاج بالغ واعربت عن صدمة حقيقية وصادقة. وقالت لها كونستانسيا على اثر ذلك:
«هذا ما حدث معنا، يا آنسة. ولذلك فإن أمي مصممة على ابعادك عن خوان».
«كنت أظن طوال الوقت... يبدو أنني اصبحت مصدر ازعاج للجميع، اليس كذلك؟».
«ليس بالنسبة الى رافاييل. انا متأكدة من ذلك».
«تقولينها بهدوء وكأنك واثقة جداً من كلامك. ولماذا رافاييل بالذات؟ أليست أمك خائفة من أن اتمكن من... اغواء رافاييل أيضاً؟».
«انت تعرفين بالتأكيد ان رافاييل غير مهتم ابداً بالنساء. فعروسه

هي الكنيسة، وسوف يعود قريباً الى مكسيكوسيتي حيث يدرس اللاهوت».

كان من حسن الحظ ان ايفا مايور اختارت تلك اللحظة بالذات كي تدخل الغرفة وتعلن ان وقت الزيارة قد انتهى، وان المريضة بحاجة الى المزيد من العلاج. لم تقل ميراندا شيئاً. اصيبت بصدمة وذهول، وشعرت باعياء شديد. وللمرة الثانية خلال يومين، انهارت في سريرها واغمي عليها.

عندما استعادت وعيها بعد قليل، كان رافاييل وايفا في الغرفة. وسمعته يقول لها بهدوء حازم:

«لا يزال جسمك ضعيفاً للغاية، يا آنسة، ويجب الا يتعرض للارهاق والصدمات. اني مضطر لمنع الزيارات عنك حتى اشعار آخر».

كرست ميراندا جميع طاقاتها خلال اليومين التاليين لاستعادة قوتها ونشاطها. أكلت كل شيء اعطي لها، وتناولت الحبوب المهدئة للاعصاب بدون تردد او احتجاج. كما انها حاولت جهدها الا تفكر ابداً برافاييل. ولكنها اتخذت قراراً هاماً. فبمجرد ان تستعيد عافيتها، سوف تأخذ لوسي وترحل بها عن هذا الوادي... ان قبل الآخرون او رفضوا!

في نهاية اليوم الخامس، تمكنت ميراندا من مغادرة سريرها والسير قليلاً في ارجاء البيت. كانت تعرج بعض الشيء وظهرها لا يسمح لها بعد بحمل حقيبة او السير مثلا نحو الطائرة بدون مساعدة. ولكنها كانت تحرز بعض التقدم. وفي تلك الليلة، استعصى عليها النوم بسبب كثرة تفكيرها برافاييل. حاولت البحث في الظلام عن الحبتين المهدئتين اللتين تركتهما لها ايفا، الا ان يدها ارتطمت بكوب الماء فوقع ارضاً.

«اللعنة! اللعنة! اللعنة!».

قامت من سريرها وتوجهت الى المطبخ لاحضار كوب آخر. ولما

فتحت الباب، وجدت رافاييل جالساً على مقعد خشبي وهو يضع وجهه بين راحتيه. لم يشعر بدخولها الا بعد لحظات طوال. وما ان رفع رأسه لينظر اليها حتى شهقت متألمة بسبب الاعياء الذي بدا على وجهه.

«رافاييل! هل انت... مريض؟ الوقت متأخر جداً، فلماذا لم تذهب الى النوم؟».

وقف بصعوبة وتمايل جسمه قليلاً قبل ان يسألها:

«ماذا تريدين؟ كنت على وشك الذهاب الى سريري».

«اوقعت كوبي بسبب الظلام. هل تظن ان بامكاني الحصول على كمية قليلة من الماء؟».

«ماذا؟ او... اوه... نعم، طبعاً. سوف اغلي لك كمية تكفيك».

«لا بأس. يمكنني ان افعل ذلك بنفسي».

وقفت تنظر الى الابريق النحاسي وهي تشعر بانقباض شديد لوجودها معه في مثل هذا الوقت. وفجأة احست بانه اصبح وراءها مباشرة حبست انفاسها بسرعة وبدأت تسمع ضربات قلبها. واقنعت نفسها بأنها اذا ظلت واقفة بدون حراك فانه لن يلمسها.

ولكنها كانت مخطئة! طوقها بذراعيه وشدها اليه بقوة. حاولت التملص منه، لأنه سيكره نفسه في وقت لاحق بسبب خطيئته... وسيكرهها هي ايضاً. ولكنه شل قدرتها على التحرك متمتماً وهو يعانقها:

«لا تتحركي!».

حاولت الابتعاد عنه وهي تقول احتجاجاً:

«لا، يا رافاييل! لا!».

ضمها اليه بقوة اكثر وراح يداعبها بنهم. اغرتها نفسها بالاستسلام، ولكنها احتفظت برباطة جأشها وقررت الاستماع الى نداء العقل... عوضاً عن نداءات العاطفة. تململت بين ذراعيه

بعصبية وقالت:

«اتركني، يا رافاييل، اتركني! فكر بما تفعل!».

«وهل تظنين انني لا افكر... او اشعر... او ارغب؟ لا تحاربيني، يا ميراندا! انا مجرد انسان! وبامكان الرجل ان يتحمل الى حد معين فقط! انت تظنين انني شخص بارد... لا يعرف معنى المشاعر العاطفية والأحاسيس المتدفقة. ولكنك مخطئة! هل تظنين انني لم اعرف الحب مع امرأة اخرى، او انني لم اقتنع بذلك؟ لا، لن اخيب املك. لقد علمني ابي جيداً... الى درجة لا تصدق! ولكن وفرة الطعام الشهي باستمرار تتخم حتى اكبر المتذوقين للأكل!».

استمرت ميراندا في محاولاتها للتملص منه، مستخدمة لذلك البقية الباقية من قوتها وهي تقول بحدة:

«لا افهم ماذا تقول وماذا تعني! اتركني! يجب ان تتركني!».

جاء رده عليها سريعاً وقسوياً. ادارها نحوه وضمها بشدة، صارخاً:

«آه، يا ميراندا آه... الحب... نظفيني من هذا الشيطان الذي يكاد يدفعني الى حافة الجنون!».

ضغطت ميراندا بكفيها على صدره وغرزت اظافرها في جلده، فيما ابقت رأسها منحنياً بقوة لابعاد وجهها قدر الامكان عن وجهه الناري. نفد صبره، فامسك بذقنها ورفع وجهها نحوه ثم عانقها بعنف. احست بجسمه يرتجف، وشعرت بنشوة انتصار لأنها تمكنت من اثارته الى هذه الدرجة.

ولكن انتصارها كان قصير الأمد. حملها بقوة بين ذراعيه وسار بها سريعاً نحو غرفتها. لا، لن تقبل، فهي ليست معتادة على ذلك. ومع ان رافاييل هو اول رجل في حياتها تريده، الا ان الاخطار كثيرة والنتائج وخيمة العاقبة. انه لا يريدها زوجة، بل يريد امتلاكها! انها تحبه كثيراً! ولكن ماذا لو حملت منه؟ انها تتمنى ذلك من صميم قلبها... ان تحمل طفله! الا ان ذلك يجب ان يتم بالطريقة الوحيدة

التي تعرفها وتقبل بها... الزواج. قفزت من السرير وهي تقول له بحزم وقوة:

«لا، يا رافاييل! لا، لن ادعك تمسني!».

وقف ساكناً بدون حراك، وخيم على الغرفة صمت مطبق لم تسمع خلاله الا تنفسها المتقطع. ثم تأفف بغضب وانفعال وحمل قميصه... وغادر الغرفة.

ظلت ميراندا واقفة في مكانها اكثر من خمس دقائق، وكأنها قطعة باردة من الحجر. ثم انتبهت الى نفسها واستلقت على السرير باكية!

لم تنم ميراندا قبل ساعات الصباح الأولى، وكانت مرهقة الى درجة الاعياء والمرض. وكلما نامت بعض الوقت، تتعرض لأحلام مزعجة رهيبة توقظها خائفة مذعورة. وكانت لا تزال نائمة عندما احضرت لها ايفا طعام الفطور. جلست في سريرها متعبة النفس والجسم. هل كان ذلك كابوساً مزعجاً؟ هل ضمها رافاييل الى صدره، وحملها الى السرير، ام انها كانت تحلم؟ ولكن كوب الماء موجود على الأرض!

دخل رافاييل كعادته وفحصها بدقة وعناية، بدون ان تظهر على ملامحه القاسية اي دلائل على احداث الليلة الفائتة. ثم قال لها ببرودة:

«يبدو انك تحسنت كثيراً، يا آنسة. ربما نتمكن غداً من السماح لك بالعودة الى المزرعة».

«اوه، لا... اعني... انه ليس بامكاني العودة الى هناك».

«لما لا؟».

نظرت ميراندا نحو ايفا، فأومأ اليها رافاييل بالخروج. تنهدت ميراندا واخبرته الحقيقة بدون لف او دوران:

«لا تريدني والدتك ان اعود الى القصر».

«لا تريدك امي ان... اوضحي نفسك، يا آنسة».

«اوه، رافاييل، هل من الضروري ان نستمر في هذه التمثيلية

السخيفة؟ انت تعرف جيداً ان امك تتصور بأنني اسعى وراء شقيقك! ثم. . . . ارجوك ان تتوقف عن استخدام كلمة آنسة معي. اسمي ميراندا وانت تعرفه كما اعرفه انا!».

رد عليها بصوت معذب قائلاً:

«انت تزيدين من صعوبة الأمور معي، يا ميراندا. حسناً، انا افكر بك كميراندا، ولكن الذي لا افهمه هو هذه العلاقة بينك وخوان. الى اي حد انت متورطة معه؟».

ازاحت وجهها عنه بغضب، قائلة بتململ واضح:

«لست متورطة معه بأي شكل من الاشكال. ولكن كونستانسيا اخبرتك بالتأكيد انه فسخ خطوبته مع فالنتينا».

«مستحيل! لا، لم تخبرني اختي بذلك. اعترف لك باني لم امنحها اي فرصة للتحدث معي. لقد اغمي عليك آنذاك، وكنت منهمكاً بك».

«ولكن. . . الم تذهب الى القصر ابداً منذ مجيئي الى هنا؟».

نظر بعيداً وقال لها بصوت منخفض:

«لا، لم اذهب بعد الى المزرعة».

«اوه، رافاييل! ولكنك قلت. . . عندما اصبت بحادثتي. . . .».

«قلت انه تم ابلاغ عائلتي بالحادث. لم اذهب بنفسي بل اوفدت شخصاً لنقل الخبر. ومنذ ذلك الحين، لم يسمح لي وقتي بالذهاب».

«في اي حال، لم يعد الأمر هاماً. فكما قلت انت بنفسك، تحسنت صحتي كثيراً. وعليه فانني سأقوم ببعض الترتيبات الضرورية كي نغادر انا ولوسي غوادالبيا في اسرع وقت. . .».

قاطعها رافاييل بعناد واصرار بالغين، قائلاً:

«لا! لا يمكنك ذلك!».

«لم لا؟ انا. . . انا يجب ان اعود، وعلى لوسي ان تعود معي. . . مهما كان رأي اخيك».

«وماذا قال لك، يا ميراندا؟ لماذا فسخ خطوبته؟».

احمرت وجنتاها وقالت:

«لا اهمية لذلك!».

«انا اعترض. اريد ان اعرف السبب، يا ميراندا. اخبريني! اني اصر على ذلك!».

ازعجتها نظراته الملتهبة، فهزت براسها تأففاً وقالت له:

«اوه، ان الأمر سخيف. . . سخيف للغاية! قال انه يحبني. تصور، يحبني انا!».

وضحكت ثم اضافت بجدية:

«طبعاً، انا لم اصدقه».

كان رافاييل يتنفس بصعوبة وانزعاج وكانت كلماتها القليلة تمنع عنه الهواء.

«ولكنك لم تخبريني بهذا الأمر».

«كيف كان يمكنني ذلك؟ وهل كانت هذه المسألة ستثير اهتمامك؟».

سيطر رافاييل بقوة على اعصابه المتوترة وقال لها:

«لم يكن الوضع طبيعياً منذ البداية، ولكنك بالتأكيد سوف تعودين الى المزرعة. سوف اعد الترتيبات اللازمة بنفسي. واذا ازعجك خوان بأي شكل من. . .».

«اوه، ارجوك، ارجوك! انا لا اريد العودة الى هناك. وكما قلت لك، سوف اعد نفسي لمغادرة الوادي و. . . .».

«ليس الآن! ارجوك، يا ميراندا، لا تدفعيني بقوة!».

التقطت ميراندا انفاسها وقالت له:

«لا افهم ماذا تعني».

«اوه بلى، انك تفهمين جيداً ماذا اعني».

كان الاصفرار يغطي وجهه ونظراته مشابهة لتلك التي شاهدتها الليلة الفائتة. وفجأة، توجه نحو الباب وهو يقول لها باسلوبه المعتاد:

«يجب ان اذهب. لدي اعمال كثيرة. ستحضر لك ايفا ملابسك. ارتديها واخرجي قليلاً، ولكن لا تبتعدي كثيراً عن هذا البيت. مفهوم؟».

هزّت برأسها دليل الموافقة، فخرج من الغرفة واغلق الباب وراءه.

لم تكن ميراندا قوية كما كانت تتصور. شعرت باعياء شديد نتيجة لنزهتها القصيرة نحو النهر. وسرها كثيراً لدى عودتها ان تجد ايفا بانتظارها، وقد اعدت لها ابريقاً من الشاي الساخن. جلست الفتاتان بهدوء لا يعكر صفوهما سوى صعوبة التفاهم. فميراندا لا تعرف من لغة ايفا الا بعض ما يتعلمه السائح، وايفا لا تفهم شيئاً من لغة ميراندا الا ما يستخدم مع المرضى وفي المستشفيات. وبعد قليل قرع الباب، ففتحته ايفا وعادت بسرعة لتقول بالاسبانية:

«انه الكاهن، يا آنسة».

دخل الأب دومنكو بعد لحظات وحيا الفتاتين بلغته قائلاً:

«اوه اسعدتما صباحاً. كيف حالكما؟».

ردت ايفا بالاسبانية بينما حيته ميراندا بابتسامة طيبة. وتذكرت انها لم تره منذ ذلك العشاء في القصر. قدمت له ايفا الشاي فحمل فنجانه وجلس قبالة ميراندا، بعد ان تبادل بضع كلمات مع الشابة المكسيكية. ابتسم الكاهن الشاب لياقة وقال:

«اخبرتني ايفا ان رافاييل ليس موجوداً هنا الآن. هذا لا يزعجني ابداً، لأني اريد محادثتك على انفراد».

«معي انا، يا سيدي؟».

حيا الكاهن الشاب الفتاة المكسيكية التي استأذنت بالخروج من الغرفة، وقال لميراندا:

«نعم يا آنسة. والآن يمكننا التحدث بحرية».

«ولكنني لا ارى ان هناك اي موضوعات تتطلب حديثاً على انفراد. اذا كان الموضوع متعلقاً بخوان ولوسي، فعلي ان اقول

لك...».

«مهلاً، مهلاً يا ابنتي! لم آت الى هنا لأحدثك عن الطفلة او عن الرجل الذي يهتم بها منذ بضعة اشهر. اريد ان احدثك عن رافاييل».

«رافاييل؟ ولكن...».

احمر وجهها فجأة ولم تتمكن من اخفاء دهشتها.

«وماذا بشأن رافاييل؟».

«اني قلق لأجله، وتصورت ان بامكانك مساعدتي... كونك تنظرين الى الأمور نظرة واقعية وموضوعية».

شربت ميراندا جرعة من الشاي الساخن وسألته عما يعنيه. تمهل الأب دومنكو بعض الشيء، ثم قال لها بهدوء بالغ:

«اني اجد صعوبة في شرح هذا الموضوع الحساس، يا آنسة. ولكن الأمر له اهمية كبيرة بالنسبة الى عائلته. انت تعرفين، كما اظن، انه يسعى لدخول معهد اللاهوت كي يصبح راهباً!».

«اخبرتني بذلك كونستانسيا... اعني الآنسة كويراس».

«حسناً. ولكن الأمر الذي قد تجهلينه هو رفض والدته لهذا... لهذا القرار».

«لماذا؟».

«رافاييل هو الابن الاكبر لأبيه، وبالتالي فهو الوريث الشرعي للقصر والممتلكات. وتشعر السيدة ايزابيلا بانزعاج كبير لأنه تخلى عن مسؤولياته وحقوقه لأخيه، واختار طريقاً آخر».

«ربما... ربما اعتبر ان الطريق الآخر هو المسؤولية الحقيقية... والهدف الأسمى».

«رافاييل رجل ذو معتقدات وافكار تتسم بالمثالية، وهو يعتقد بأن قراره هذا سوف يؤثر على... على الأمر الواقع. نعم، الأمر الواقع. ولكن الوضع يحتاج الى اكثر من قدرات رجل واحد، مهما كان قوياً ونافذاً ومؤمناً».

«ولكنه يحب الناس ويهتم بهم!».

«طبعاً. فالسيد دائماً يحب الناس العاملين معه ويهتم بهم. ليس هذا بالأمر الجديد. اننا دائماً نسعى لتحسين ظروف معيشتهم».

«ولكنه يريد مساعدتهم... بطريقة فعلية...».

«لا انا لا انكر ذلك. انه يشبه والده كثيراً، والناس هنا يحبونه الى درجة كبيرة. ولكن رافاييل لا يحب هذه المقارنة، لأنها تعيد الى نفسه ذكريات مزعجة».

تحركت ميراندا في مكانها متململة وقالت له:

«اتصور انه ليس من الضروري ابداً ان تبحث معي في الأمور الخاصة لرافا... للسيد رافاييل».

«ولكنك اصبحت في فترة قصيرة جداً نسبياً تعرفين جميع افراد العائلة بشكل وثيق أليس كذلك، يا آنسة؟».

«ربما كان ذلك... نتيجة للظروف... غير الاعتيادية!».

«غير اعتيادية؟ نعم، اوافقك على ذلك. ولكن عليك الاعتراف بأن وجودك هنا اثار زوبعة هوجاء».

تنهدت ميراندا وسألته بانقباض:

«اذن سوف نتحدث عن خوان ولوسي؟».

«فقط بطريقة غير مباشرة، يا آنسة. انا اشكك باعجاب خوان بك... بكما معاً. ولكن السيدة ايزابيلا هي من المدرسة القديمة التي تؤمن... بالزواج المتفق عليه سلفاً بين العائلات. وتجد صعوبة بالغة في قبول هذا التصرف المستقل من خوان ورفضه الانصياع لرغبات الوالدين. ومن الطبيعي انها صعقت، ومن الطبيعي ايضاً انها لم تقبل ذلك في البداية. الا انها بدأت تدريجياً...».

توترت اعصاب ميراندا الى درجة بعيدة وقاطعته بالقول:

«ماذا تحاول قوله، يا أب دومنكو؟».

«انا لا احاول شيئاً، ولكنني انقل اليك معلومات مفادها ان

السيدة ايزابيلا لم تعد تعارض... صداقتك... مع خوان».

شهقت ميراندا استغراباً وقالت:

«خوان وانا لسنا صديقين، يا سيد. اننا نعرف بعضنا، لا اكثر ولا اقل. وكان تصرفه بالنسبة الى الطفلة ادى الى تدمير اي صداقة كانت ستقوم بيننا!».

«ولكنك لا تفهمين ماذا اعنيه، يا آنسة. ما اود قوله لك هو انه بامكانك البقاء في الوادي بمباركة من السيدة ايزابيلا. وكذلك الأمر بالنسبة الى الطفلة. وخلاصة القول ان مشاكلكما حلت وانتهت».

قالت ميراندا لنفسها باستهزاء ان المشاكل الحقيقية بدأت عوضاً عن ان تنتهي. وقبل ان تفتح فمها لتشرح له حقيقة مشاعرها، عاد الكاهن للتحدث عن رافاييل. كرر لها، وبالتفصيل هذه المرة، ما قاله سابقاً عن الابن الأكبر. قال ان رافاييل يتورط اكثر فأكثر في شؤون الناس، مع ان عليه عدم الاختلاط بهم الى هذه الدرجة. انه يستخدم عاطفته ويدعها تتحكم بعقله وارادته. لا يمكنه ذلك فهو ابن ابيه... مهما تمرد على التقاليد والأعراف.

«ولكن... لماذا تحدثني بهذه الأمور التي لا علاقة لي بها؟».

«بدأت السيدة ايزابيلا تتفهم محنة كل من ابنيها. فمن غير المسموح به لخوان... كسيد القصر... ان يتزوج شابة غريبة. اما اذا كان حقاً يريد ذلك، وكان على استعداد للتخلي عن...».

وفجأة، وبكل اشمئزاز، ادركت ميراندا اهداف الكاهن... او بالاحرى، السيدة ايزابيلا. انها تريد اعادة ابنها البكر الى المزرعة لاستعادة حقه المشروع. واذا تزوج خوان من الفتاة البريطانية، وتخلى بالتالي عن ادارة ممتلكات والده، فسوف يضطر رافاييل للعودة الى قواعده واستلام المهام الموكولة اليه توارثاً وتقليداً. وقفت ميراندا بعصبية وقالت للكاهن بحزم وقوة:

«اخشى انك تضيع وقتك، يا سيد. انا لا يمكنني التحدث بالنيابة عن... خوان. اما بالنسبة الي، فأي صداقة او علاقة عاطفية بيننا

ليست الا من صنع الخيال. انا لا احب خوان! انه لا يعجبني كثيراً! كما اني متأكدة من انه لا يحبني!».

دخل رافاييل القاعة بصورة مفاجئة وكان وراءه رجل شعرت ميراندا بأنها تعرفه، ولكنها ظنت بأنها واهمة وترى اشياء، لا وجود لها. دخل الرجل الثاني قاعة البيت، فحبست ميراندا انفاسها.

اقترب رافاييل المرهق منها وقال لها، مشيراً الى رفيقه:

«اعتقد انك تعرفين هذا الرجل، يا آنسة».

كان يرتدي ثياباً رثة ويبدو عليه التعب والضياع. كما انه فقد الكثير من وزنه. ومع ذلك، فانه كان بامكان ميراندا التعرف على زوج اختها في اي زمان ومكان. همست باسمه غير مصدقة عينيها.

بوب! هز الرجل رأسه وحياها باسمها ميراندا. ميراندا!

ركضت نحوه كالمجنونة، فتعانقا طويلاً. انه حي يرزق!

١١- الحزن يملأ الأيام

حاول بوب كارمايكل اطلاع شقيقة زوجته على كافة تفاصيل الحادث. ولكنه اضطر أولاً لابلاغها بمقتل اختها سوزان، مما بدد الى الأبد الأمل الضعيف الذي كانت تتعلق به . . . والذي ازداد لدى مشاهدتها بوب. وعزّت ميراندا نفسها بأن احد والدي لوسي على الأقل لا يزال حياً.

كانت ميراندا تجلس بين بوب ورافاييل أثناء توجه الثلاثة الى الدير. ومع أنها حاولت التركيز على ما يقوله زوج اختها الراحلة، الا انها كانت تشعر دائماً بحرارة جسم رافاييل الملتصق بها. وعندما أرادت مرة التحرك قليلا، وضعت يدها خطأ على رجله. حاولت سحبها بسرعة، ولكن رافاييل أمسك بها وأبقاها في مكانها.

وسمعت بوب يروي القصة:

«هبّت عاصفة هوجاء لم أعرف لها مثيلا في حياتي. لم تكن الطائرة ممتلئة، وكنا نحن نجلس في المؤخرة. اعتقد ان جميع الذين كانوا في المقدمة لاقوا حتفهم على الفور. كانت الطائرة تهوي بسرعة فائقة ولا أدري حقاً ماذا حدث. ربما اصطدم ذيلها باحدى القمم. ارتطمت الطائرة بالصخور وانشطرت الى نصفين، هوى أحدهما الى الوادي. أصبت وسوزان بجروح بالغة. أوه، نعم، كانت سوزان لا تزال حية بعد الحادث. ولكننا اعتقدنا ان لوسي ماتت. وأتصور ان هذا الاعتقاد هو الذي أفقد سوزان رغبتها في الحياة».

توقف بوب فجأة وبدا عليه التأثر والحزن، ثم مضى الى القول:

«في أي حال، توقعنا ان يكون الارتطام القوي دفع بالطفلة الى مكان بعيد... ربما الى الوادي. ولكن، كان عليّ الا أنهار. سوزان وأنا كنا الناجيين الوحيدين من ركاب المؤخرة».

سألته ميراندا بذهول:

«ألم تفقد وعيك؟».

«أوه، طبعاً. في البداية، على الأقل. لا أتذكر الكثير عما حدث، ولكني أذكر ان الدماء كادت تتجمد في عروقي لشدة البرد. وأذكر ايضاً ان الدماء التي كانت تتدفق من رأس سوزان...».

توقف ثانية والغصة في قلبه وحلقه على حد سواء. ثم تابع حديثه قائلا:

«آسف، آسف جدا. لم اقصد ايلامك».

طوقته بذراعها ووضعت رأسها على كتفه، فتنهد وقال:

«أعتقد ان بعض الهنود الذين يسكنون قرية جبلية نائية وجدونا فيما كنا على وشك الموت. كانت اللغة عائقاً كبيراً وما ان تمكنت من افهامهم بالاشارات ما أريده منهم، حتى كانت سوزان لفظت انفاسها الأخيرة. لا أعرف طوال المدة التي امضيتها مستلقياً في ذلك الكوخ الصغير أصارع الموت. ثلاثة أشهر... او ربما أربعة. كانوا

اشخاصاً بسطاء وليس لديهم أي مواد طبية... أو حتى أي اتصال مع العالم الخارجي».

ثم نظر الى رافاييل وقال له:

«ربما تعرف هؤلاء الناس. انهم مستقلون الى درجة كبيرة وأنا واثق من أنهم استخدموا جميع مهاراتهم، محاولين انقاذي بشتى الطرق المتوفرة لديهم».

قال له رافاييل بهدوء:

«أنا لست هندياً، يا سيد. ولكنهم أناس طيبون جداً ويبذلون ما في استطاعتهم لمساعدة الآخرين».

«لم يبلّغ احد منهم السلطات المسؤولة بأنني لا ازال حياً. ولم تتسرب من قريتهم معلومات حول وجود رجل أجنبي بينهم، الا بعد ان تمكنت من الخروج بنفسي من ذلك الكوخ».

«اني أشك كثيراً، يا سيد، في أن يكون هؤلاء الأشخاص على علم بوجود... سلطات مسؤولة. فكلمة سلطات تعني لهم شيئا آخر تماماً».

«في أي حال، ذهبت الى مكان يدعى سويسترا. كنت مصاباً بشلل جزئي في رجلي اليمنى، كما لاحظتها، وكان السير متعباً ومرهقاً. الا انني كنت حياً ومصمماً على البقاء! كان ذلك منذ ستة اسابيع تقريباً. أمضيت طوال تلك الفترة لأثبت هويتي وأحصل على بعض المال للسفر الى بريطانيا. ولم أعرف ان ابنتي ايضا لا تزال على قيد الحياة، الا عندما اتصلت بمدير ميراندا في لندن».

سحبت يدها بتردد من يد رافاييل، مع انه كان يمسك بها بقوة وحنان. أرادات يائسة ان تنظر اليه وتشبع نظراتها من وسامته وجاذبيته، ولكنها شعرت بأنها واهمة وتتبع السراب. واقنعت نفسها بأن بوب يحتاج اليها، في حين ان رافاييل ليس بحاجة لأحد.

تطلعت نحو بوب وقالت له:

«وأنت تعرف أن... أن لوسي لا... لا تتذكر شيئاً. أليس

كذلك؟».

«اعرف. اخبرني السيد رافاييل ذلك. كنت وصلت لتوي الى المزرعة وتحدثت مع . . . السيدة ايزابيلا: نعم، السيدة ايزابيلا. كانت تذكر لي ان ابنها الآخر، خوان، متعلق جداً بالطفلة. وفي تلك الأثناء وصل السيد رافاييل».

وفجأة، برز الدير أمامهم فسأل بوب بلهفة:

«هل هذا هو المكان الذي تقيم فيه ابنتي؟».

ولما ردّت عليه ايجاباً، طوقها بذراعيه هاتفاً بصوت مرتفع:

«اوه، ميراندا! هل تعرفين ماذا يعني لي هذا الأمر بعد تلك الأشهر الطويلة من الحزن واليأس؟ اني أشكر الله العلي القدير على انني وجدتك انت بعد فقداني سوزان. سوف تساعديني في تربية لوسي، أليس كذلك؟ ومن يدري . . . فقد نتمكن من التوصل الى اتفاق ما!».

ذهلت ميراندا وقالت له باستغراب:

«أوه، بوب، أرجوك. أنا . . . أنا . . .».

وتطلعت نحو رافاييل، ولكنها فوجئت بعينين باردتين نظرتا اليها بقوة قبل ان يحوّل الرجل وجهه الى مكان آخر.

ركضت لوسي نحو السيارة بلهفة وشوق، ظناً منها ان رافاييل سيأخذها في نزهة مثيرة أخرى. نزل رافاييل من السيارة ثم ساعد ميراندا بتأديه المعتاد. وفرحت ميراندا كثيرا عندما حيتها الطفلة باسمها . . . وبحرارة.

«كيف حالك، يا حبيبتي. اني مسرورة جداً لرؤيتك ثانية».

«وأنا ايضا. أبلغني الخال خوان انك مريضة ولا يمكن لأحد زيارتك. ولكني كنت أريد مقابلتك، فوعدني الخال خوان بأننا سنزورك معاً . . . وربما اليوم!».

«أنا هنا الآن، يا لوسي و . . . وقد أحضرت معي شخصاً آخر لمقابلتك».

تراجعت لوسي الى الوراء واستفسرت بقلق عمن يكون هذا الشخص.

«لا تهربي، يا حبيبتي! أرجوك! اذهبي . . . اذهبي الى السيارة، فثمة انسان يتحرق شوقاً لرؤياك . . . انسان تحبينه . . . جداً جداً».

تقدمت الفتاة بخطى مترددة نحو السيارة ثم نظرت بحذر الى داخلها. اتسعت عيناها تعجباً وانفجرت باكية وهي تصرخ:

«انه . . . انه . . . اوه، لا، لا يمكن، لا يمكن!».

امسكها رافاييل بحنان وقوة وأعادها نحو السيارة. تأملها والدها، فيما كان يخرج من السيارة، وقال لها:

«مرحباً، يا لوسي. انت تتذكرينني، أليس كذلك؟ قولي انك تتذكرينني! أنا والدك الذي يأتي من مكان بعيد بحثاً عنك!».

عاد رافاييل بعد ثلاثة أرباع الساعة ليجد ميراندا جالسة على صخرة صغيرة، وهي غارقة في تفكيرها وأحلامها. كان بوب ولوسي ورافاييل دخلوا الدير مع الأب استيبان، ولكنها فضلت البقاء خارجاً في الهواء الطلق . . . وبعيداً عن الأحاديث المؤثرة التي ستجري في الداخل. وقف رافاييل امامها وقال لها بلهجة رسمية:

«سوف آخذ صهرك وابنة شقيقتك قريباً الى المزرعة، يا آنسة، لأن السيد كارمايكل يريد توجيه الشكر لأمي وأخي على حسن ضيافتها. هل أنت مستعدة؟».

«متى . . . متى يريد بوب مغادرة الوادي؟».

«بعد الظهر. حضر بسيارة ولكن الرحلة طويلة ومرهقة. عرضت عليه نقله بالطائرة المروحية الى بوابلا. سيذهب سائقه بالسيارة هذا الصباح ويلاقيه هناك».

تنهدت ميراندا وقالت:

«حسناً. اغراضي موجودة في بيتك. سأنتظر هناك لحين ذهاب بوب الى المزرعة وعودته . . . ان . . . لم يكن لديك أي مانع».

نظر اليها رافاييل باستغراب وسألها بحدة:

«هل ستذهبين مع صهرك؟».

«طبعاً، فهو... فهو سيحتاجني. انه لا يعرف شيئاً عن... الأمور المنزلية».

سألها بغضب واضح:

«هل هذا يعني انك سوف... سوف تعيشين معه؟».

«طبعاً. ولم لا؟».

هزّ رافاييل رأسه وقال:

«عندما تصبحين مستعدة يا آنسة...».

«ماذا كنت تتوقع مني أن اقول، يا رافاييل؟ أنا لن أشاركه سريره، ان كان هذا ما تعنيه او تتصوره».

كانت لندن باردة والرطوبة فيها مرتفعة ومزعجة، مع ان الوقت كان منتصف الصيف. لم يكن لبوب ولوسي بيت خاص بهما، لأن العائلة باعت منزلها قبل انتقالها الى اميركا الجنوبية. وعليه، انتقلا الى شقة ميراندا الصغيرة المتواضعة.

رفض بوب العودة الى اميركا الجنوبية، فمنحته شركته وظيفة موقتة في لندن كي يتمكن من الوقوف مرة اخرى على رجليه. ودخلت لوسي المدرسة في اليوم الثاني لعودة ميراندا الى عملها. وبدأت المشاكل منذ ذلك الحين...

«كنت أفكر بهذا الموضوع طيلة الاسبوعين الماضيين. اننا بالتأكيد نحتاج الى مدبرة منزل تهتم بالطفلة اثناء وجودنا في العمل. ولكن الشقة صغيرة ولا تستوعب شخصاً اضافياً».

«بامكانك الانتقال الى شقة اخرى، يا بوب. بامكانك ايضا استخدام مربية او مدبرة منزل. أنا متأكدة من ان دخلك المرتفع يسمح لك بذلك وبكل سهولة».

اقترب منها وقال لها بصوت منخفض:

«أنا لا أريد مربية، يا ميراندا. أريد الزواج منك... لا، لا، انتظري!».

قال الكلمات الثلاث الأخيرة عندما رفعت يدها اعتراضاً واحتجاجاً. ثم مضى الى القول بهدوء ملحوظ:

«اعلم انه من المبكر جداً مفاتحتك بهذا الموضوع. لم تمض بعد سنة على وفاة سوزان، ولكن ألا ترين ان الزواج هو الحل الأفضل والأمثل؟».

قفزت ميراندا من مكانها وهي تقول بحزم:

«لا، يا بوب. لا، يستحيل ذلك. فالزواج ليس بالأمر السهل».

«لماذا؟ لماذا يستحيل ذلك؟ ليس هناك شخص آخر، على ما اعتقد. أنت قلت لي بنفسك انك لن تتزوجي مديرك في العمل. فلماذا تعتبرين زواجنا امراً مستحيلاً؟».

«لأنني لا احبك، يا بوب. أرجوك... يجب ان تصدقني. لا يمكنني ان أوافق. لا يمكن».

نظر اليها بانهزام، مما جعلها تشعر بالأسف نحوه. ولكن ذلك الشعور لم يكن كافياً كي يجعلها تقبل الزواج منه.

«أنت تدركين انك اذا رفضت الزواج مني، فسوف اضطر للبحث عن شخص آخر. انا لا اريد ذلك، يا ميراندا، ولكنني رجل لا يعرف العيش بمفرده. كانت سوزان تعرف ذلك وتتفهمه».

«أرجوك! افعل ما تريد! ابحث عن منزل أو شقة. استخدم أحداً للاهتمام بلوسي. سوف أزوركما كلما سنحت لي الفرصة بذلك. ولكن لا يمكنني الزواج منك، يا بوب. وهذا أمر نهائي لا رجوع عنه».

كان يساعدها في معظم الأمور المنزلية... حتى حدوث تلك المجابهة بينهما، أهمل كل شيء، بما في ذلك الاعتناء بشؤون ابنته. ثم أبلغها يوماً انهما سينتقلان الى شقة خاصة بهما. أحست بالوحدة القاتلة بعد انتقالهما، وكانت أسوأ الأوقات لديها عندما تعود بعد الظهر لتجد الفراغ المؤلم. كانت لوسي تملأ الشقة حياة وصخباً، وكانت تسلّيها وتلهيها عن افكارها السوداء.

دعاها مديرها ذات يوم الى العشاء، فلبت الدعوة بكل سرور. وعدها بأن يمر عليها في السابعة والنصف، أي بعد حوال ساعتين من وصولها الى شقتها. فتحت الباب ودخلت القاعة الصغيرة، الا انها تسمرت في مكانها عندما شاهدت رجلا مستلقياً على الكنبة. ماذا يفعل بوب هنا؟ هل حدث مكروه للفتاة؟ قام الرجل من مكانه بهدوء واستدار نحوها شهقت وقالت بذهول:

«رافاييل! رباه، هل هذا أنت؟ أنا... أنا أحلم، أليس كذلك؟».

اقترب منها وضمها بقوة بين ذراعيه. أبقاها على ذلك النحو فترة طويلة، ثم تراجع خطوة الى الوراء وسألها بصوت أجش:

«حلم... أم كابوس؟».

«حلم... اوه، نعم، حلم يا رافاييل».

عانقها مرة اخرى، فيما كانت يداه تداعبان شعرها وكتفيها. وقال لها متمتماً:

«لي، أنت لي، أليس كذلك؟».

لم تجبه واكتفت بأن تكون بين ذراعيه. لم تحاول البحث في صحة او خطأ شيء قد يتبخر بين لحظة واخرى. ثم احست بأنه يبعدها عنه قليلا ويقول لها بشغف واضح:

«أنت ساحرة، يا ميراندا. سحرتني شخصيتك وقيّدني حبك وجمالك. لا تتململي أو تخجلي، يا حبيبتي. لديك جسم جميل وانوي امتلاكك من الرأس حتى أخمص القدمين. هل تفهمين ما أقول؟ هل تريدين معرفة سبب حضوري الى هنا؟».

ابتعدت عنه ميراندا بسرعة وسألته لاهثة:

«لماذا؟ لماذا أتيت، يا رافاييل؟».

«لأنني احبك، يا ميراندا. اظن انني احبك منذ فترة طويلة».

«ولكن... ولكن... مسؤولياتك... هدفك...».

«أي مسؤوليات وأي أهداف؟ لديّ منها الكثير».

«قالت لي كونستانسيا انك... انك على وشك الدخول في سلك الرهبنة».

«نعم، نعم، كنت سأفعل ذلك».

«اذن، كيف يمكنك التخلي عن هذه الرغبة بمثل هذه السهولة؟».

«لم يكن قراري سهلا ابداً. ولكني شعرت منذ التعرف اليك بأنني لست...».

«ولكنك لم تقل شيئاً! لم تصدر عنك ابداً أية اشارة توحي لي...».

توقفت لحظة وكأنها تذكرت امراً هاماً، ثم سألته:

«هل... هل أقنعك الأب دومنكو بتغيير رأيك؟».

«الأب دومنكو؟ ولماذا يحاول الأب دومنكو اقناعي بهذا الشيء او بغيره؟».

«كانت تلك مشيئة والدتك، أليس كذلك؟ اعتقدت انك سوف تضطر للعودة الى المزرعة وتولي شؤونها، فيما لو تزوجني خوان وتخلّى عن هذه المسؤولية. ولكن بوب أتى... وتبدلت الأوضاع. كنت آمل... كنت آمل...».

ضمها الى صدره بحنان ومحبة، فيما كانت هي تجهش بالبكاء كطفلة صغيرة.

«عما تتحدثين، يا صغيرتي؟ هل تعتقدين ان أمي تشجعني على الزواج من اجنبية لحملي على التخلي عن الكهنوت؟ اوه، لا يا حبيبتي، فهي لم تردك أنت على الاطلاق».

لم تستوعب ميراندا كلامه كله. هل قال حقاً انه ينوي الزواج منها؟ همست:

«ولكنك لم تفسر...».

«حسناً، حسناً. اذا كانت التفسيرات تسرك، فلدي الكثير. تعلقت بك منذ البداية، وأظن انك كنت تدركين ذلك. ولكني لم اكن اعرف شعورك نحوي، فامتلأت ايامي حزناً وأسى».

«أوه رافاييل!».

«كنت أغار من خوان، من أمي، من الشقيقتين، ومن كل شخص يقترب منك. ولكني أبعدت نفسي عنك. لأني لم اكن أضمن حسن تصرفي معك. أتذكرين المرة الاولى قرب البحيرة؟ كنت تعلمين انني أريدك، أليس كذلك؟ وكانت الخطوة الأخيرة في بيتي عندما كدت أقدم على أمر لا رجوع عنه. لماذا منعتني؟ ألم تلاحظي انني لن أتركك أبداً بعد ذلك؟ أنا لست كالرجال الآخرين الذين تعرفينهم. ستكون هذه المرة طوال العمر، يا حبيبتي».

ابتعدت عنه قليلا وقالت بتلعثم واضح:

«أنا... أنا... لا أفهم ما تعنيه، يا رافاييل. هل تعتقد ان... ان رفضي لك تلك الليلة كان... كان بسبب الخوف؟ الخوف من انك قد تتركني؟ ثم... ماذا تعني بقولك انك لست كالرجال الآخرين الذين أعرفهم؟».

حاول عبثاً ضمها ثانية الى صدره قائلا:

«ماذا يهم بعد الآن؟ أنا هنا... اننا معا. أنا لم أكن دائماً عنيفاً، يا ميراندا. عندما كنت شاباً يافعاً، كان والدي لا يزال على قيد الحياة. تعرفت على كثير من النساء. تصورت انني لن اقترب من امرأة بعد ذلك... ثم التقيتك أنت».

ابتعدت عنه بعنفوان وفتحت الباب بغضب قائلة:

«أرجوك ان تخرج! الآن!».

«ميراندا...».

«اني اعني ما اقول، فأمك لن تقبل ابداً بأن أكون... امرأتك».

صحح لها تعبيرها باستخدامه كلمة زوجة عوضاً عن امرأة، ثم اغلق الباب وقال بهدوء:

«أمي متشوقة جداً لاستقبالك في المزرعة. شعرت بعد مغادرتك الوادي قبل ثلاثة اسابيع بأنني لم اعد قادراً على ضبط مشاعري. كنت أفكر بك طوال ساعات النهار والليل. شعرت بأن عليّ مقابلتك

لمعرفة ما اذا كنت تبادلينني الشعور ذاته. أبلغتها عزمي على الزواج منك، اذا كنت ستوافقين. غضبت وثارت في بادىء الأمر. ثم هدأت وقالت انها ستبارك زواجنا فيما لو قررت العودة الى المزرعة. كنت سأتزوجك مهما كان رأيها، الا ان موافقتها افضل من معارضتها. الا ان هذا لم يكن كل شيء أردته منها وحصلت عليه. لقد أخذت موافقتها على تقسيم الأراضي على الجميع، وعلى ان يعمل كل شخص لنفسه وليس لسيد القصر».

فتح الباب ثم خرج منه وهو يقول:

«اني آسف جداً لأنك لا تشعرين نحوي كما أشعر أنا نحوك. تقبلي اعتذاري».

اغلق الباب وراءه تاركاً ميراندا واقفة بدهشة وذهول. هل كان يعني ما يقول؟ هل أتى حقاً الى لندن بنية الزواج منها؟ هل كان هنا أم انها تحلم؟ فتحت الباب وأرادت ان تناديه... لتقول له انها متيّمة بحبه... ولكنه لم يكن هناك! عادت الى الغرفة حزينة ويائسة. اتصلت بمديرها واعتذرت عن الخروج معه تلك الأمسية. وتصورت انها لن تتمكن ابداً بعد الآن من الخروج مع أي رجل...

حل منتصف الليل وهي تتصل بالفندق الأخير على لائحتها الطويلة. لم يكن في أي من هذه الفنادق القريبة والبعيدة. انها غبية الى ابعد الحدود! لماذا تركته يذهب؟ الكبرياء؟ عزة النفس؟ وسمعت الباب يفتح بهدوء...

«رافاييل؟ هل هذا أنت، يا رافاييل؟».

أضاء النور في الغرفة وسألها باسماً، فيما كان يرمي علبة على الكنبة:

«وهل كنت تتوقعين غيري، يا حبيبتي؟».

ركضت نحوه وألقت بنفسها بين ذراعيه. وبعد ان هدأت قليلا، سألته متمتمة:

«ولكن لماذا... لماذا ذهبت؟ لماذا تركتني؟ كنت خائفة وقلقة

عليك!».

«أليس هذا ما كنت أشعر به أنا منذ اللحظة التي شاهدتك فيها؟ أظن انك تريدين عودتي، أليس كذلك؟».

«أوه، نعم، نعم! أوه، رافاييل، اني احبك. . . احبك!».

«وهل تقبلين الزواج مني؟».

«في أي وقت تريد. لماذا ذهبت وتركتني؟ لتعلمني درساً لا أنساه؟».

«الى حد ما. ولكني أحضر لك ايضا هذه العلبة. انها ثيابك الموجودة في سيارتي منذ رحلتنا المشهورة الى البحيرة».

«ولكن، لماذا تأخرت؟ أين ستقيم؟».

«لدى احد اقربائي هنا. دعاني للاقامة معه، وقبلت ذلك شاكراً. لم أتوقع الحصول على مثل هذه الموافقة السريعة. كنت أظن. . . لا يهم!».

«ماذا كنت تظن؟».

«لا بد لي من الاعتراف بأني توقعت وجود صهرك هنا. توقعت انه لا بد من. . . اقناعك بتركه!».

«رافاييل!».

هز كتفيه اعتذاراً وقال:

«هذا لا يهم بعد الآن! كنت هنا. . . وكنت، كالعادة، جميلة وجذابة. ذهبت الى شقة قريبي ولكني لم اكن مرتاحاً. وعدت نفسي بالعودة غداً، ولكني لم اتمكن من البقاء هناك حتى الصباح. يجب ان اعرف الليلة».

«الآن؟ الآن؟».

«الأمر متروك لك. يمكننا العودة الى المكسيك في أسرع وقت ممكن سوف نتزوج هناك في كنيسة الوادي الصغيرة. . . وبمباركة الأب دومنكو نفسه. ومن المؤكد ان صهرك ولوسي مدعوان على الرحب والسعة لحضور حفلة الزفاف. وبالطبع، سوف اهتم بتذاكر السفر وكافة النفقات».

نظرت اليه بشغف وهيام قائلة:

«رافاييل، رافاييل! انك لا تدري مدى السعادة التي منحتني اياها».

ضمها بقوة الى صدره وسألها بحرارة:

«وأنت، يا حبيبتي؟ ألا تريدين اسعادي؟».

«هذا ما أريده وأطمح اليه».

ولكن رافاييل ظل ممسكاً بها بعض الوقت ثم أبعدها عنه برفق قائلا:

«سوف ننتظر. اذهبي الآن الى سريرك، يا حبيبتي! اذهبي قبل ان اغيّر رأيي لأسباب انانية!».

بعد أربعة اسابيع، تزوج رافاييل وميراندا في تلك الكنيسة الصغيرة. حضر الاحتفال جميع القرويين، بالاضافة الى أفراد عائلة كويراس وأقربائهم. كانت ميراندا ترتدي الفستان الأبيض ذاته الذي ارتدته السيدة ايزابيلا يوم عرسها.

وتولى بوب تقديم العروس الى عريسها، فيما كانت لوسي اشبينة العروس ووصيفتها. حتى خوان بدا سعيداً للغاية بوظيفته الجديدة كمدير للممتلكات، وبالمنزل الجديد الذي يبنيه على بعد بضع مئات من الأمتار عن القصر. وتقرر ان تسكن معه أمه وشقيقتاه. ولاحظت ميراندا ان فالنتينا عادت الى الواجهة، ومن المؤكد ان امها سوف تقنعه قريباً بتجديد الخطوبة. . . وبالزواج فور ذلك.

بالنسبة اليها، كان رافاييل كل ما تحتاجه وتريده، لم تكن مهتمة أين يسكنان. فالقصر الفسيح والبيت الحجري الصغير لا يختلفان كثيراً. . . طالما انه معها.

توجها بعد ظهر ذلك اليوم الى أكابولكو حيث استأجر فيللا فخمة لتمضية شهر العسل.

استيقظت صباح اليوم التالي لتجده مستلقياً قربها، يراقبها بمحبة

وسعادة فيما علت وجهه ابتسامة لطيفة. تمددت امامه بارتياح ثم سألته بغنج ودلال:

«ما رأيك، ايها الحبيب؟».

طوقها بذراعيه القويتين ثم وضع رأسه على صدرها وتمتم بشغف:

«أوه، ميراندا، ميراندا! انك رائعة! ولا بأس في أن يصفني البعض بأنني من الطراز القديم، فقد شعرت بسعادة فائقة عندما تبين لي... انني اول رجل في حياتك اني احبك الى الأبد».

«أنت الأول والأخير أيها الغالي».